(٢)

نفحات من السيرة

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

نفحات من السير

(٢)

الإمام
جابر بن زيد

تأليف
الدكتور فرحات بن علي الجعبيري

رقم الإيداع
٩٤/١٧

الإهـــداء

إلى روح إمامنا جابر بن زيد العُماني رضي الله عنه أهدي هذه القراءة لسيرته النّيّرة ، اعترافا بما له من جميل على المسلمين عامّة وعلينا معاشر الإباضية خاصّة .

وصدق تلميذه أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة التّميمي في قوله عن شيخه : «كلّ صاحب حديث ليس له إمام في الفقه فهو ضالّ ، ولولا أن منّ الله علينا بجابر بن زيد رضي الله عنه لضللنا» .

فرحـــات

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله .

اللّهم صلّ على نبيّنا محمّد وعلى آل محمّد ، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمّد وعلى آل محمّد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين ، إنّك حميد مجيد .

الحمد لله الّذي كرّم أنبياءه ورسله فاصطفاهم من بين العالمين ، وأيّدهم بالوحي المبين ، وأرسلهم مبشّرين ومنذرين ، فلم ينتقلوا إلى الرّفيق الأعلى إلاّ بعد أن أدّوا الأمانة وبلّغوا الرّسالة .

الحمد لله الّذي توّج جميع الرّسالات برسالة خاتم النبيّين والمرسلين ، سيّدنا محمّد عليه من الله أفضل الصّلاة وأزكى

التّسليم ، الذي قال في حقّه تشريفا وتكريما

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء ــ ١٠٧)

الحمد لله الذي علّم هذا الرّسول ما لم يعلم ، وجعل معجزته القرآن الكريم معجزة خالدة إلى يوم الدّين ، لا يصيبها البلى في أيّ حين ، بل يسطع نورها رغم كيد الكائدين ، وتخطيط الماكرين .

الحمد لله الذي أناط عهدة هذه الرّسالة للعلماء الصّالحين ، وجعلهم ورثة رسول العالمين ، ففضّلهم بذلك على النّاس أجمعين ، وقال في حقّهم :

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ (الزمر ــ ٩)

وقال أيضا :

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر ــ ٢٨)

أمّا بعد :

نعلم جميعا معاشر المسلمين أنّ القرآن الكريم بلغنا متواترا ، أي استمرّ تواصله من زمن الرّسول ــ ﷺ ــ جماعة عن جماعة من أولي الألباب الصّالحين .

وهذا الكتاب العزيز يدعونا إلى أن نقتدي في جلائل أعمالنا

وصغارها بالمصطفى ــ ﷺ ــ ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب ــ ٢١)

هكذا فعل أصحاب الرّسول عليه السّلام ، ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا ، فليس للمسلم الرّبّانيّ إذا أراد أن يكون من أهل الاستقامة الصّالحين إلاّ أن يتأسّى بالرّسول ــ ﷺ ــ ، وبمن تأسّى به من الصّالحين عبر الزّمان وعبر المكان .

وبهذا التأسّي العمليّ نكون قد عملنا على أن يتواصل تواتر نقل ديننا الحنيف ، وشاركنا مشاركة فعّالة في استمرارية هذا الدّين الذي كتب الله له أن تقوم عليه السّاعة .

ولما للتأسّي بالقدوة الصّالحة في سيرة المسلمين من فضل أحببنا في هذا العمل المتواضع أن نعرض سيرة علم من أعلام المسلمين ألا وهو الإمام جابر بن زيد اليحمدي الجَوْفي البصري العُماني رضي الله عنه .

وقد توخيّنا في عرضنا هذا الخطّة التّالية :

الفصل الأول : نشأة الإمام جابر بن زيد .

الفصل الثاني : عبر من سيرة الإمام جابر بن زيد الذّاتيّة .

الفصل الثالث : عبر من سيرة الإمام في خضمّ المجتمع .

الفصل الرابع : من رسائل الإمام وآرائه .

ولم يكن عملنا هذا مجرّد سرد لما ورد من أخبار الإمام في مختلف المصادر ، وإنّما حرصنا كلّ الحرص على أن نستخلص من أبرز محطّات حياة هذا الإمام كلّ ما يمكن أن يستخلص من العبر التي يحتاج إليها المسلم ليعرض عليها نفسه ، ويقول أهؤلاء رجال ونحن لسنا برجال ؟

ثمّ يجيب : نعم إنّهم رجال ونحن رجال ، ويشمّر على السّاعد ليكون خير خلف لخير سلف ، وبذلك لا يكون الحديث عن الأصالة ضربا من الأحلام ، وإنّما يكون اعتزازا بماضي أمّتنا الزّاهر ، ينير المستقبل بهدي النبوّة الكريم ، ويهذي من أفلح باهتدائه بهدي النبوّة . وبهذا يرتبط مستقبل الأمّة وحاضرها بماضيها المشرق ، وتستمرّ المسيرة على درب الأيمان .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (الأنعام)

فيا ربّنا ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ غير الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾ ﴾ (الفاتحة)

نستغفرك ونتوب إليك ، لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك ، اجعلنا من الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلّي العظيم .

الفصل الأول

نشأة الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه

الفصل الأول
نشأة الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه

١) مولد الإمام جابر بن زيد :

ولد الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه بمدينة فرق قرب مدينة نزوى ببلاد عُمان سنة إحدى وعشرين للهجرة المقابل لسنة تسع وثلاثين وستمائة للميلاد ، (٦٣٩/٢١) زمن خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ذاك الّذي لقّب بالفاروق لأنّه كان رمز العدل في حكمه ، واستطاع بفضل الله أن يميّز بين الحقّ والباطل ، وأن يفرّق بينهما ومركز الخلافة آنذاك المدينة المنوّرة .

وكني الإمام جابر بن زيد فيما بعد بأبي الشّعثاء كما هو شأن العرب حيث يتكنوّن بأكبر مولود لهم ، والشّعثاء هي ابنته الكبرى ، وما يزال قبرها معروفا إلى الآن في مدينة فرق .

وقد كان العرب يعتزّون بهذه الكنى التي تدلّ على محبّتهم لإنجاب الذريّة ، وعلى متانة العلاقة بين الآباء والأبناء ، لا كما هو الشّأن عند بعض الشّعوب الذين لا يهتمّون بالأنساب ، وقد أقرّ الإسلام هذا الأمر ونعلم أنّ سيّدنا محمّدا ــ ﷺ ــ

يكنى بأكبر أبنائه القاسم ، أي أنّه ـــ ﷺ ـــ يعرف بأبي القاسم .

وإن أقرّ الإسلام هذه الكنى فإنّه نزع عنها ما كانت تحمله من مظاهر التكبّر في الجاهليّة ، وهي المرحلة التّاريخيّة التي سبقت الإسلام ، وعرفت بهذا الاسم لما كان عليه أهل الجزيرة العربيّة من شرك في العقيدة وحبّ للظّلم ومثلهم شهير : (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) ، أي حتى ان علمت أنّه يظلم غيره يجب أن تقف بجانبه وتساعده على ظلمه .

ولا بأس هنا من أن نميّز بين اللّقب ، والكنية ، فإن كانت الكنية كما رأينا مظهر تشريف فإنّ اللّقب عادة يكون للتّقبيح ، وذلك بأن تذكر إنسانا بما فيه من عيب ، كأن تنادي إنسانا ابتلاه الله بفقدان البصر يا أعمى . وأنت تريد بذلك احتقاره ، أو يا أعرج ، أو يا أعور ، أو ما إلى ذلك .

ولذلك حرّم الله تعالى التّنابز بالألقاب ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾

(الحجرات ـــ ١١)

٢) نسب الإمام جابر بن زيد :

إنّ الإمام جابر بن زيد عربيّ النّسب ، أصله من ولد

عمرو بن اليحمد الأزدي فهو حينئذ ينتسب إلى قبيلة الأزد العُمانية التّي اشتهرت بالشّجاعة في الجاهليّة ، وبالمشاركة الفعّالة في الدّفاع عن الإسلام في حروب الرّدّة ، تلك الحروب التّي أثارها بعض ممّن في قلوبهم مرض إثر وفاة الرّسول ـــ ﷺ ـــ وقيام خلافة أبي بكر الصّديق رضي الله عنه إذ لم يريدوا الاعتراف به خليفة ، أو أراد بعضهم أن يتوقّفوا عن أداء الزّكاة لبيت مال المسلمين .

لكنّ المسلمين المخلصين ، ومن بينهم الأزد الذين ينتسب إليهم الإمام جابر بن زيد أوقفوا هؤلاء المرتدّين عند حدّهم وانتصروا عليهم ، واستقرّ الأمر للمسلمين الذين واصلوا نشر الإسلام ، وقد كانت لقبيلة الأزد مشاركة فعّالة أيضا في الفتوحات الإسلاميّة .

ومعلوم أنّ اعتزاز المسلمين بأنسابهم لا يعني تحقير بعضهم لبعض كما كان الشأن في الجاهليّة ، حيث كان كلّ جنس يحتقر الجنس الآخر ، بل على العكس من ذلك لقد فهموا أنّ أكرم النّاس في ميزان الله تعالى أتقاهم كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات ـــ ١٣)

وكما قال ــ ﷺ ــ : (لا فضل لعربيّ على أعجميّ ، ولا لأعجميّ على عربيّ ، ولا لأسود على أبيض ، ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتّقوى) .

وبهذا المعنى تعاونت كلّ الأجناس وتعانقت لتعمل في صفّ واحد من أجل نصرة الإسلام .

ولا بأس من أن نذكر أنّ الفتى من قال ها أنا ذا ، وليس الفتى من قال كان أبي ، ذاك أنّ الإنسان يقاس بما قدّم للإسلام والمسلمين من خير ، وهكذا كان الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه أذ أخذ العلم عن عدد كبير من الصّحابة والتّابعين ، وتعلّم عنه خلق كثير دون أيّ اعتبار للجنس ، فعرف بما وهبه الله من علم لا بما وهبه الله من عراقة نسب .

٣) إسلام أهل عُمان المبكّر :

رضي الله تعالى عن ذلك الصحابي الجليل مازن بن غضوبة ، ذاك الذي ألهمه الله رشده في حدود السّنة السّادسة للهجرة ، المقابل للسنة الثامنة والعشرين وستمائة للميلاد (٦٢٨/٦) فحطّم ما كان يعبد من أصنام ، وتوجّه إلى مدينة الرّسول ــ ﷺ ــ ، فآمن به ، وعاد ينشر دين الله تعالى في بلاد عُمان انطلاقا من مدينة سمائل .

واستمع إليه رضي الله عنه يقول :

إليك رسول الله خبّت[1] مطيتي[2] ... تجوب[3] الفيافي[4] من عمان إلى العرج[5]
لتشفع[6] لي يا خير من وطئ[7] الحصى ... فيغفر لي ربّي فأرجع بالفلج[8]
إلى معشر جانبت في الله دينهم ... فلا ديننهم ديني ولا شرجهم[9] شرجي
وكنت امرؤا باللهو والخمر مولعا ... شبابي إلى أن أذن الجسم بالنهج[10]
فبدلني بالخمر أمنا وخشية ... وبالعهر[11] إحصانا فحصن لي فرجي
فأصبحت همي في الجهاد ونيتي ... فللّه ما صومي وللّه ما حجي

كما أنّ ملكي عُمان عبد وجيفر ابني الجلندى استقبلا مبعوث رسول الله ــ ﷺ ــ أحسن استقبال واعتنقا الإسلام ، وتبعتهما الرّعية .

وفي ذلك يقول أبو بكر رضي الله عنه عندما وفدا عليه من ضمن ما قال : (معاشر أهل عُمان ، إنّكم أسلمتم طوعا ،

---

(١) خبّت : أسرعت .
(٢) مَطِيّتي : ناقتي .
(٣) تَجُوبُ : تقطع البلاد سيرا .
(٤) الفَيَافِي : ج فيفاء : الصّحراء الواسعة .
(٥) العَرْجُ : موضع قرب المدينة ، ويقصد المدينة المنوّرة .
(٦) شَفَعَ : الشّفاعة العظمى للرّسول عليه السلام يوم القيامة ليتحوّل النّاس عن المَحْشَرُ ، وليزيد الله الصّالحين درجات في الجنة .
(٧) وَطِئَ : داس بقدميه .
(٨) الفَلْجُ : النّصر .
(٩) الشَّرْجُ : الشّكل .
(١٠) النَّهْجُ : يشير إلى تقدّم السنّ يقال نهج الثوب : بلي وصار رثّا .
(١١) العُهْرُ : الزّنا .

لم يطأ رسول الله ساحتكم بخفّ ولا بحافر ، ولا جشّمتموه ما جشّمه غيركم من العرب ..) .

فأهل عُمان دخلوا الإسلام صلحا ، أي عن رضا وطواعية ، ورغبة في الدّين الجديد ، بينما دخلت كثير من القبائل العربيّة عنوة أي بحدّ السّيف وبفضل الجهاد .

بهذا ندرك أنّه مضى على إسلام أهل عُمان يوم ولادة جابر خمس عشرة سنة ، وهم يتنعّمون بنعمة الإسلام ، ويعيشون تحت رايته الخفّاقة ، وقد استجاب الله لدعاء نبيّه فيها ذاك الدّعاء الذي طلبه منه مازن بن غضوبة رضي الله عنه فقال من بين ما قال : (اللهم اهدهم (أهل عُمان) وأثبهم) .

نعم لقد حلّت الهداية ، وعمّ الرّخاء ، وطابت البلاد ، وانتشرت حلقات العلم والتّعلّم في أطراف البلاد يُرَتّلُ في جنباتها كتاب الله العزيز ، وتروى سنّة المصطفى ـــ ﷺ ـــ .

إنّها نعمة الإسلام ، ويالها من نعمة .

٤) نشأة الإمام جابر بن زيد :

إنّ ما نعرفه اليوم من دفاتر لتسجيل التّلاميذ عند التحاقهم بالمدارس لم يكن معروفا في هذه المرحلة المبكّرة من حياة المسلمين .

وإنّما كانت حياتهم عفويّة تجمع النّاس حلقات العلم في المساجد كبارا وصغارا ، المهمّ أنّ الكلّ يتعلّم لله تعالى ، والكلّ يعلّم إخلاصا لله تعالى .

فلا مطمع لنا حينئذ في أن نعثر على الدّفتر الذي سجّل فيه اسم جابر عندما التحق بالمدرسة ، ولا على واحدة من نتائجه في بعض الامتحانات ، ولا على بعض الجوائز التّي يكون قد تحصّل عليها لنجابته وتفوّقه ، لأنّه لم تكن هناك مدرسة بالشّكل الذي نفهمه اليوم في المدينة التي نشأ فيها وهي مدينة فرق .

وإن لم نجد كلّ هذا ، فإنّ الأمر الذي لا نشكّ فيه من خلال ما نعرف عن سيرة الإمام جابر بن زيد فيما بعد أنّ الله تعالى جعل في فطرته استعدادا لطلب العلم ، لذلك فلا حرج علينا أن نذكر أنّه سرعان ما حفظ ما يحفظ من القرآن الكريم في مسجد مدينة فرق ، ليتحوّل بعد ذلك إلى أقرب مدينة ، وهي مدينة نزوى هذه التي سيكون لها شأن عظيم في بلاد عُمان ، ثمّ إلى مدينة صحار ، وقد كانت مركز الدّولة وعاصمة البلاد ، والولاة فيها يعيّنون من مركز الخلافة مدينة الرّسول ـــ ﷺ ـــ .

وهنا لابدّ من أن ندرك حقيقة في تاريخ علماء المسلمين وهي قلّة حديثهم عن نشأتهم الأولى ، وذلك تواضعا منهم ، إذ يعتبر المسلم أنّ في كثرة الحديث عن الأنا علامة من علامات الغرور والتكبّر والمفاخرة ، وهذه كلّها صفات مذمومة في الإسلام .

فلا حرج حينئذ أن نذكر أنّ الأخبار عن الإمام جابر بن زيد في هذه المرحلة نادرة .

ويمكن ان نفترض أنه انتقل بسرعة إلى البصرة لأنّ الإمام يعرف بجابر بن زيد الجوفي البصري ، والجوفي نسبة إلى درب الجَوْفِ حيث استقرّت قبيلة الأزد في مدينة البصرة النّاشئة .

والبصريّ : نسبة إلى مدينة البصرة التي تقع عند مصبّ نهري دجلة والفرات جنوب بلاد العراق وشمال الخليج العربي ، وهي المدينة التي أسّسها عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ستّ عشرة للهجرة المقابل لثمان وثلاثين وستمائة للميلاد (٦٣٨/١٦) ومصّرها من بين بقية المدن التي مصّرها ، وذلك يعني أنّ مركز الخلافة ليعتبر مدينة البصرة مركزا هامّا من مراكز البلاد الإسلاميّة التّي بدأت تتّسع رقعتها يوما بعد يوم بفضل ما فتح الله للمسلمين من البلاد شرقا وغربا وجنوبا وشمالا .

٥) الإمام جابر بن زيد في مدينة البصرة :

البصرة وما أدراك ما البصرة ! مصر جليل من أمصار المسلمين الزّاخرة جمعت بين زينة الدّنيا ومتاع الآخرة ، فهذه المساجد ، وتلك الأسواق ، والكلّ حسب رغبته .

إنها مدينة جعلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذرعا ، وجعلوا عرض ما سواه من الشّوارع عشرين ذرعا ، وجعلوا عرض كلّ زقاق سبعة أذرع .

في قلب المدينة المسجد الجامع ، وإلى جانبه دار الإمارة ذاك أنّ الإسلام يجمع بين المادّة والروّح :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ (القصص ــ ٧٧)

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ (الأعراف ــ ٣٢)

(الأعراف ــ ٣٢)

ثم بعد ذلك تأتي الأحياء بمساكنها اللّطيفة ومساجدها العامرة .

ذلك هو تخطيط المدينة التي يحقّ لها أن تسمّى مدينة إسلاميّة ، المسجد هو القلب النّابض ، منه ينطلق كلّ خير ، وإليه يرجع كلّ خير ، يعطي الشّحنة الإيمانيّة لمن يتردّدون عليه خمس مرّات في اليوم ، فلا يغفل التّاجر عن أنّ الله أحلّ البيع

وحرّم الرّبا ، ويتذكّر الصّانع أنّ من غشّنا فليس منّا ، ويدرك الطّفل أن الأمّة ما تزال بخير ما وقّر الصّغارُ الكبار . وإذا بالأرواح تتآلف ، وإذا بالأجساد تتعانق تحت شعار : (لا يؤمن أحدُكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه) .

هذا هو المحيطِ الذّي كرع من منابعه في مدينة البصرة الإمام جابر بن زيد ، إنّه في درب الجوف ، بين الأهل والأقارب ، فلا شعور بالغربة ــ وإن كان المسلم حيثما حلّ يكون بين أهله وذويّه ، ذاك أنّ رابطة الإيمان هي أقوى رابطة ــ بل أنس ومحبّة لله ، وفي الله .

ولم تكن وجهة جابر نحو زينة الدّنيا ، بل كان يقنع منها بقدر الكفاف ليتفرّغ للعلم والتّعلّم والتّعليم .

ومن يخفي عليه أنّ الإسلام رفع من شأن المعلّم والمتعلّم ، فأوّل ما أمر به المصطفى ــ ﷺ ــ القراءة :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

(٩٦ العلق)

والله تعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر ــ ٢٨)

ويقول أيضا :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الزمر ــ ٩)

فالفارق كبير جداً بين الذّي يعلم والذّي لا يعلم ، ويكفي الذّي يعلم ويعمل أنّه أشدّ خشية لله من غيره ، بل تنحصر الخشية فيه ، ومن يدرك أنّ عين الله تراقبه ، وأنّ الله يعلم السّرّ وأخفى فلن يصدر منه إلاّ الخير .

هذا ما تحتاج إليه الأمّة الإسلاميّة اليوم ، وهذا ما يحتاج إليه العالم بأسره ، علم يورّث الخشية ، لا علما يبعد الإنسان عن ربّه ويزيده كفرا يوما بعد يوم .

وتفرّغ الإمام جابر للعلم والتعلّم ثم التّعليم ، فلم يؤثر عنه أنّه تعاطى تجارة ، أو صناعة ، أو فلاحة .

وهنا سؤال يطرح ، فمن أين لقمة العيش ؟

وحقيق بمثل هذا السّؤال أن يطرح لأنّ من يدخل إحدى عواصم العالم اليوم دون مورد رزق يموت جوعا دون أن يلتفت إليه أحد ، لكن المدينة الإسلاميّة نمط آخر ، وخاصة إذا علمنا أنّ الإمام كان بين أهله في هذه المدينة .

نعم إنّها الأوقاف ، إنّه التكافل الاجتماعيّ في أسمى معانيه ،

إنّها أموال الزّكاة قبل ذلك ، وقد جعل الله لابن السّبيل ــ المنقطع عن ماله ــ فيها نصيبا حتّى وإن كان في وطنه من أثرى الأثرياء . قال تعالى .

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (التوبة ــ ٦٠)

فالإقامة مضمونة ، وكذا بقيّة الحاجيات ، من طعام ، ولباس ، وما إلى ذلك ، لم يبق على جابر بن زيد إلاّ أن يحقّق بغيته في طلب العلم .

إنّهم مائة وخمسون من أصحاب رسول ــ ﷺ ــ أولئك هم شيوخ الإمام جابر في مدينة البصرة يذكر أنّه حوى جميع ما عندهم باستثناء واحد لقّبه بالبحر ، إنّه حبر هذه الأمّة ذاك الذي دعا له الرّسول ــ ﷺ ــ الله تعالى أن يفقّهه في الدّين ، إنّه عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما .

مائة وخمسون صحابيّا ، يعني مائة وخمسين مدرسة في مدينة البصرة وحدها .

ماذا ياجابر ألم يصبك الكلل في يوم من الأيّام وأنت تتردّد

على هذه المدارس الزّاخرة ، أليس هذا بكثير ؟

بدون شكّ ليس ذلك بكثير لأنّ علم الشّريعة ينبع من كتاب لا يأتي عليه الزّمن لأنّه لا تنتهي عجائبه .

ولا ننسى مدى شوق النّاس آنذاك إلى أن يجلسوا إلى من جلس إلى رسول الله ــ ﷺ ــ لأنّهم يرون أنّهم أنوار الهدى ومصابيح الدّجى .

هكذا كان شأن جيل التّابعين ، وهم أولئك الذين جاءوا مباشرة زمن الصّحابة و لم يدركوا الرّسول ــ ﷺ ــ كما هو الشّأن بالنّسبة إلى الإمام جابر .

وفعلا ندرك من غزارة علم الإمام فيما بعد أنّ الله تعالى وهبه قدرة فائقة على الحفظ والاستيعاب ، مع حسن الفهم ، فهو لم يكن مجرّد ناقل علم لمن هو أفقه منه ، وإنّما كان يحفظ ويتعلّم ويفقه ما يحفظ وما يتعلّم ، قادرا على حسن التّصرّف وحسن التّبليغ .

أخذ عن هؤلاء ما حفظوه عن رسول الله ــ ﷺ ــ من تفسير للكتاب العزيز ، ومن سنّة شريفة بما فيها من قول وعمل وإقرار .

وكلّنا يعلم أن كلّ هذه العلوم الإسلاميّة لا يستوعبها

إلاّ من كان له باع في اللّغة ، والإمام عربيّ المنبت ، فصيح اللّسان ، لكن لا يمكن أن يفوته أن يتردّد على سوق البصرة الشّهيرة المعروفة بسوق المربد .

إنّها سوق كسوق عكاظ في مكّة المكرّمة يلتقي فيها الشّعراء يتبارون في حسن البيان ، وذاك جبلّة في العرب أي من طبيعتهم ، والشّعر كما يقال ديوان العرب وعنوان الأدب .

نعم إنّ هؤلاء العرب يحفظون من سماع واحد ، وكذا كان الإمام جابر فيما أحسب ، وما جاء في تفسيره للقرآن الكريم ولحديث الرّسول ــ ﷺ ــ وفي فقهه ، فيما بعد من شواهد لدليل على ذلك .

ولا شكّ أنّنا أبناء العصر الحديث ، أبناء الآليات التي تسجّل ، والفهارس التي تسهّل نكاد لا نصدّق عندما يقال لنا فلان يحفظ من سماع واحد ، لكن فلنعلم جميعا أنّ هذا الصّنف أكثر كان موجودا فيما مضى لأنّ النّاس يعتمدون على الحفظ أكثر من الكتابة ، وما يزال في العالمين اليوم من هذا الصّنف ، وذلك عطاء من الله يهبه لمن يشاء .

ومن بين أعلام الصّحابة الذين كان يجلس إليهم الإمام جابر أنس بن مالك خادم الرّسول ــ ﷺ ــ ، ذاك الذّي توفّاه

الأجل في نفس الجمعة التي توفّي فيها الإمام أي سنة ثلاث وتسعين للهجرة .

وإذا قلنا إنّ أنس بن مالك خادم الرّسول ــ ﷺ ــ قلنا إنّها عشر سنوات خصبة من حياة الرّسول عليه السّلام في الإقامة وفي السّفر ، ويكفي هذا الصّحابي أنّ رجال الحديث يروون عنه (٢٢٨٦) حديثا .

إنّها صحبة بين الرّجلين كانت في البداية للتّعلّم ، ثمّ تحوّلت بسرعة إلى التّأمّل فيما يجدّ من أحوال المسلمين بغية التماس الحلول .

٦) الإمام جابر بن زيد في الحرمين الشّريفين مكّة والمدينة :

إن كان الله تعالى فرض على المسلمين الحجّ مرة في العمر فإنّ الإمام جابر قد التزم بذلك كلّ عام .

إنّه الشّوق إلى بيت الله الحرام ، إنّه الحنين إلى الرّوضة الشّريفة التي يضمّ ثراها جسد المصطفى ــ ﷺ ــ ، ذاك الذّي يردّ السّلام على من يسلّم عليه .

إنّها الرّغبة في اللّقاء بمن صاحبوا الرّسول ــ ﷺ ــ ، إنّها الرّغبة في التّعايش مع التّابعين الوافدين من أطراف البلاد

الإسلاميّة ، إنّها الرّغبة في تحقيق منافع الحجّ وكفى . وكلّنا يعلم أنّ منافع الحجّ لا تكاد تحصى ذاك أن الحجّ مؤتمر عالميّ يكون النّاس فيه تحت لواء واحد ، إنّه لواء الإسلام لا فرق بين عربيّ أو أعجميّ أو أمازيغي إلاّ بالتّقوى ، يتعاون فيه المسلمون على البرّ والتّقوى ، ويسعون لتكون كلمة الله هي العليا .

ولقد تحقّق للإمام من كلّ ذلك الشّيء الكثير ، وقد كان في كلّ مرّة يعمل على أن يستوعب ما وهب الله بحر الأمّة عبد الله بن عبّاس ، لكنّه يدرك أنّه بحر لا ساحل له ، فيرجع إلى البصرة على أمل العودة لمواصلة الدّرس والتّلقي إلى أن قضى ذلكم الصّحابيّ أجله وقد شهد لتلميذه بغزارة العلم حيث قال : (اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه) .

إنّها شهادة من عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه جاءت مخلصة لله تعالى ، وجاءت عن بيّنة ، ومثل هؤلاء النّاس لا يطلقون الكلام قصد المبالغة والتّفخيم .

وهذه الشّهادة وحدها لها من الدّلالة الكثير على ما أوتيه الإمام من سعة أفق ، ذاك أنّ شيخه يشهد أنّه قادر على أن

يحلّ القضايا الواردة عن الأمّة الإسلاميّة من مشرقها ومن مغربها ، وفي ذلك دليل على أنّ الرّجل لم يكن مجرّد وعاء علم وإنّما كان متعلّما فقيها .

إنّ هذه الشّهادة اعتراف من المدرسة أو قل الجامعة بلغة العصر التّي كان يعيش في رحابها الإمام جابر كلّ سنة فترة ليست بالقصيرة . وكلّنا يعلم أن ابن عباس شهد له كلّ أترابه من الصّحابة بطول الباع في القدرة على التماس الحلول لما جدّ في الأمّة من قضايا لم تعرف من قبل في حياة الرّسول — ﷺ — .

فشهادة ابن عبّاس لجابر رضي الله عنهما في ذلك الزّمان أسمى من شهادة الدّكتوراه من أرقى الجامعات في العالم اليوم .

فيالهما من شهادتين مخلصتين ، الشيخ يشهد للطّالب بأنّ علمه يستوعب المشرق والمغرب والطّالب يعترف أنّه إزاء بحر لا ساحل له ، ولا سبيل إلى استكمال ما فيه من الجواهر .

هذا هو الإمام جابر في عين شيخه وذاك هو الصحابي عبد الله بن عبّاس في عين محبّه الإمام جابر .

ثم إلى جانب الأخذ عن عبد الله بن عبّاس لقد كان الإمام يجلس في مدرسة أخرى ذخرها الله تعالى للأمّة الإسلاميّة ، إنّها

أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها تلك التي قضت زهرة شبابها تأخذ عن رسول الله ــ ﷺ ــ في سرّه وعلنه ، وفي حياته العامّة وحياته الخاصة .

ولم يكن يتردّد الإمام جابر عن أن يسألها عن دقائق حياتها الزّوجيّة مع رسول الله ــ ﷺ ــ وجبينه يتصبّب عرقا إلى أن شهدت بأنّه كان يسألها عن مسائل لم يسألها عنها أحد قطّ .

وإكراما له ولرغبته في الطّلب كانت السّيّدة عائشة رضي الله عنها تقدّم له وسادة عندما يجلس بين يديها متعلّماً .

وكفى بتلكم الشّهادة وذلكم الإكرام دليلا على ما لهذا الرّجل من مكانة عند زوجة النّبيّ ــ ﷺ ــ ، تلك التي يقول عنها : (خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء) .

وهذه أيضا مدرسة أخرى عريقة يتخرّج منها الإمام جابر رضي الله عنه ، وينهل ما كانت تحويه ممّا أخذته عن رسول الله ــ ﷺ ــ من تفسير للقرآن الكريم ، ومن سنّة قوليّة وعمليّة وتقريريّة أي ما يراه عليه السّلام ويسكت عنه دلالة على حلّه لأنّه لا يسكت على الحرام .

وفي مدرسة المدينة المنوّرة وقد قضى مرّة سنة ليتّصل

بعلمائها أخذ الإمام جابر بن زيد عن عدد من الصّحابة رضوان الله عليهم نذكر منهم زيد بن ثابت الأنصاري ذاك الذّي صحب النبيّ ــ ﷺ ــ منذ صباه ، وهو الذّي ظلّ مترئّسا في المدينة طيلة الخلافة الرّاشدة وشيئا من خلافة معاوية في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض يعني قسمة المواريث .

ويشهد له عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّ أهل المدينة يحتاجون إليه فيما يجدون عنده فيما يحدث لهم ما لا يجدون عند غيره .

وإجلالا لمنزلته العلميّة لقد كان عبد الله بن عباس يأخذ بركابه ويقول : (هكذا يفعل بالعلماء والكبراء) .

وعلى الجملة فإنّ زيد بن ثابت كان واسع الاطّلاع ، الأمر الذّي يمكّنه من أن يحلّ ما يحدث من مشاكل للمسلمين بالمدينة المنوّرة ، وللمسلمين الوافدين على عاصمة الخلافة من أطراف البلاد .

نعم لقد جلس الإمام جابر بن زيد إليه وحوى ما عنده كما رأينا في شهادته بما وهبه الله من القدرة على الاستيعاب .

إنّها نشأة زاخرة بالعلم والتّعلم بين مركزين من أهمّ مراكز الحضارة في القرن الأوّل لهجرة الرّسول ــ ﷺ ــ .

إنّها مدرسة العراق من جهة وقد عرفت بمدرسة الرّأي ، وليس معنى ذلك أنّ أصحاب هذه المدرسة لا يأخذون بحديث رسول الله ــ ﷺ ــ وإنّما اتّسعت لديهم الحضارة واختلطت الأجناس فكانوا يضطرّون إلى استعمال الرّأي أكثر من غيرهم .

وإنّها أيضا مدرسة الحجاز من جهة أخرى وقد اشتهرت بمدرسة النّقل ، وليس معنى ذلك أنّ أصحاب هذه المدرسة لا يأخذون بالرّأي البتّة ، وإنّما ملابسات الحياة التي بقيت قريبة إلى ما كانت عليه زمن رسول الله ــ ﷺ ــ لم تضطرّهم كثيرا إلى اللّجوء إلى الرّأي .

وإنّ مثل هذا الجمع بين التيّارين كان له صداه في حياة الإمام العمليّة عندما تصدّر حلقات التّدريس والإفتاء في مدينة البصرة التي تطوّرت تطوّرا حضاريّا عجيبا ، لأنّها ملتقى عديد من الحضارات بحكم موقعها الجغرافيّ والاقتصاديّ ، فتكوّنت على يديه مدرسة فقهيّة تخرّج منها جيل كان له الدّور الفعّال في حياة الأمّة الإسلاميّة .

وسنتعرّف على هذه المدرسة الفقهيّة بعد أن نعرض أهمّ ما قيل في الإمام جابر ، وشيئا من مواقفه الشّخصيّة الخاصّة والعامّة .

٧) شهادات في الإمام جابر بن زيد :

إنّ الإنسان مدنيّ بطبعه ، فهو في حاجة إلى أخيه الإنسان وجاء الإسلام ليقيم المجتمع على الإخاء والمودّة ، فوجّه هذه الطبيعة البشريّة وجهتها الصّحيحة ، وبيّن أنّ المؤمنين إخوة وأنّهم أولياء لبعضهم البعض ، يتعاونون على البرّ والتّقوى ، ويتناهون عن الإثم والعدوان ، قال تعالى :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (التوبة — ٧١)

ومن علامات الولاية أن يذكر المسلمون بعضهم البعض بخير في السرّ والعلن ، ذلك أنّهم إذا رأوا من وقع منهم في الإثم يجاهرونه بذلك ، ويحرصون على تخليصه منه عوض أن يجعلوا ذلك أحدوثة بينهم كما يفعل كثير من النّاس اليوم ، وذلك هو معنى النّصيحة للمؤمنين .

وكلّنا نعلم أنّ العلماء يسبّلون أوقاتهم للأمّة ويذوبون في خدمتها ، أي يجتهدون بكلّ ما في وسعهم لهدايتها إلى ما يصلح أمر دينها ودنياها وآخرتها .

وليس العالم بحقّ إلاّ الذّي وافق عمله قوله لأنّ هؤلاء يخشون قول الله تعالى الذّي يذمّ الذّين يقولون ما لا يفعلون .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ (الصف)

كما أنّهم يعلمون أن أصعب سؤال يوم القيامة هو ماذا عملت فيما علمت ؟ ويدركون أيضا أن علمهم لا يمكن أن يبلغ القلوب إلاّ إذا كان نابعا من القلب ، ولن ينبع من القلب إلاّ إذا وافق القول والعمل .

لهذا كان علماء الصّلاح يتميّزون بالالتزام بما يقولون للنّاس ، بل يحرص كلّ منهم على أن يبدأ بنفسه حتّى لا يصدق عليه قول الله تعالى لبني إسرائيل :

﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

(البقرة ــ ٤٤)

بينما ترى علماء السّوء لا يجمعون بين القول والعمل وتجدهم يملأون الدّنيا كلاما ، ولكنّه لا يتجاوز حناجرهم ، لأنّهم يملأونها خرابا من جهة أخرى .

والأمّة ترقب أولئك وهؤلاء ، وتميّز بين الطّرفين فتأتي الشهادات للصّالحين مدحا ، وثناء ، وإعجابا ، واعترافا

بالجميل ، بينما تأتي الشّهادات على علماء السّوء ذمّا ، وتقبيحا ، وكرها .

لهذا فإن من تواترت فيه الشّهادات بالخير يكون عند المسلمين من علماء الخير ومن أهل الصّلاح أي ممن تكاملت أقوالهم وأفعالهم .

أ) الصّحابة رضوان الله عليهم

١ ــ عبد الله بن عبّاس

(٣ ق هـ ــ ٦٨ هـ/٦١٩ ــ ٦٨٧م) :

ــ سبق أن نقلنا شهادته في الإمام جابر بن زيد حيث قال :

(اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه) وقد بيّنا ما لهذه الشّهادة من قيمة في الاعتراف للرّجل بغزارة العلم ممّن فقّهه الله في الدّين .

ــ وقد أردف عبد الله بن عبّاس هذه الشهادة بشهادات أخرى في مناسبات أخرى وهي :

- (جابر بن زيد أعلم النّاس) .
- (جابر بن زيد أحد العلماء) .
- (عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا وعندهم جابر بن زيد ، لو قصدوه لوسعهم علمه) .

سألت امرأة ابن عبّاس عن شيء فقال : (تسألوني وفيكم جابر بن زيد) .

نعم إنّه الاعتراف من الشّيخ لأبرز طلاّبه بغزارة العلم ، وصيغة التّفضيل (أعلم) تدلّ على ذلك ، ولم يقل عبد الله بن عبّاس أعلم أقرانه مثلا ، وإنّما قال أعلم النّاس ، معنى ذلك

أنّه لم يجلس إليه من هو أعلم منه ، ومع ذلك فإن الإمام جابر يتواضع ويعترف أنّه لم يستطع أن يحوي ما عند شيخه كما رأينا .

كما أنّ في الشهادة الأخيرة تحريضا واضحا لأهل العراق ، يعني أهل البصرة والكوفة ، على عدم تحمّل مشقّة التّعب من أجل طلب الفتوى لأنّ من بينهم الإمام جابر بن زيد ، وهو يكفيهم ما يحتاجون إليه من علم ومن حلول لما يطرأ لهم من المشاكل .

فابن عبّاس يشهد للإمام جابر بالقدرة على حسن التّصرف فيما تعلّم لأنّ غزارة العلم وحدها لا تكفي وكما قلنا ربّ حامل فقه لمن هو أفقه منه .

ـــ وهذه شهادة أخرى لطيفة من ابن عبّاس للإمام جابر :
بينما كان الإمام جابر بن زيد في المسجد الحرام في إحدى رحلاته إذ رأى رجلا يصلي على ظهر الكعبة فقال : (من المصلي ؟ لا قبلة له) .

وكان عبد الله بن عبّاس في ناحية أخرى من نواحي المسجد الحرام فأخبر بذلك فقال : (إن كان جابر في شيء من البلد فهذا القول منه) .

وتثبّت النّاس في صاحب القول فإذا هو جابر بن زيد فعلا .

حادثه لطيفة تدلّ على اعتراف ابن عبّاس للإمام جابر بالجرأة على إصدار الفتوى ، إذ يعلم أنّه بالمسجد الحرام وأنّ المكان يعجّ بالصّحابة وكبار التّابعين من أمثال جابر بن زيد ، ولكنّه لم ينتظر حتّى يحيل على هؤلاء ، أو حتّى يتشاور معهم ، وذلك لأنّه واثق من فتواه ، عليم بأنّ الصّلاة على ظهر الكعبة لا تجوز لأنّها وضعت ليتوجّه النّاس إليها كما أمر الله تعالى لا ليصلّوا فوقها ، قال تعالى :

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

(البقرة ـــ ١٤٤)

هذا هو العالم حينئذ غزارة في العلم ، وقدرة على الفهم ، وجرأة على التّبليغ والإفتاء ، ومع ذلك إخلاص في العمل بما يعلم ، وتفان في خدمة الأمّة .

ـــ كما أنّ ابن عبّاس كان يعتني بأخبار جابر بن زيد وبأخبار من معه ، ذاك أنّه كان يتردّد على بيت الله الحرام رفقة صديق له يدعى أبا فقاس ، فتخلّف مرّة ، فسأله عن أحواله فأخبره أنّه في سجن ابن زياد والي البصرة .

ـــ وتأمّل في هذه الحادثة الطّريفة .

إنّ آمنة زوجة الإمام جابر اكتوت لعلّة أصابتها ، فغضب

عليها وهجرها ، فشكته لعبد الله بن عبّاس ، فطلب منه شيخه علة الغضب والهجران فقال : (إنّها لم تتوكّل على الله ، وتلا قولهُ تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق ــ ٣)

فقال له ابن عبّاس : (أكمل الآية يا جابر) يعني قولهُ تعالى :

﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق ــ ٣)

فلم يكن من الإمام إلاّ أن رضي عن زوجته .

نتبيّن من هذه الحادثة ما كان بين الشّيخ وابنه الرّوحي من مودّة ، فهذه زوجة الإمام تشكوه لشيخه ، فيثبت أنّه أراد أن يختار لزوجته أعلى الدّرجات ، وذلك بأن تعتقد أنّ الشّافي هو الله تعالى . وأن تتوكّل عليه غاية التّوكّل ، وأن تتخلّى عن الدّواء .

لكن كان للزّوجة رأي آخر وهو أن تأتي بالأسباب المشروعة للعلاج ، ومن بينها الاكتواء ، ومع ذلك تتوكّل على الله تعالى وتعتقد أنّه هو الشّافي ، وهذه لا شكّ درجة دون الدّرجة التي ارتآها الإمام جابر بن زيد .

و لم يكن من الشّيخ إلاّ أن أيّد موقف الزّوجة ، واحتجّ لرأيه

بأن طلب من الإمام جابر بن زيد أن يتمّ قراءة الآية فتكون :

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾

(الطلاق ــ ٣)

وهو يريد من ذلك أن يذكّر بأنّ الأسباب المشروعة لا تغيّر من قدر الله شيئا ، وإنّما تواكب قدر الله .

ــ وفي النّهاية لقد كان عبد الله بن عباس يستخلف الإمام جابر بن زيد في الفتيا اعترافا بما آتاه الله من بصيرة ، وهذه شهادة عمليّة تنضاف إلى ما ذكرنا من شهادات .

وهكذا ينبغي أن تكونَ العلاقة بين الشّيخ ومحبّيه ، أساسها المودّة المخلصة لله تعالى ، اعتراف من الشّيخ بمنزلة المتعلّم ، وإقرار من المتعلّم بفضل الشّيخ ، وبهذا تتكوّن الأجيال ، ويكون اللاّحقون خير خلف لخير سلف .

٢ ــ عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها
(٩ ق هـ ٥٨ هـ/٦١٣ ــ ٦٧٨م)

إنّها أفقه نساء المسلمين وأعلمهنّ بالدّين والأدب ، عايشت رسول الله ــ ﷺ ــ ثمانية أعوام ، تفقّهت فيها غاية التّفقّه .

ثم عاشت بعده قرابة الخمسين عاما ، يتردّد عليها الصّحابة

والتّابعون يأخذون من علمها الزّاخر ، وقد ثبت أنّ هؤلاء رووا عنها ٢٢١٠ من أحاديث رسول الله ــ ﷺ ــ .

وكان من بين هؤلاء جميعا الإمام جابر بن زيد ، وقد شهدت له بتلك الشّهادة التي نعيدها بنصّها هنا .

(دخل جابر بن زيد على عائشة رضي الله عنها فأقبل يسألها مسائل لم يسألها أحد عنها حتّى سألها جماع النّبيّ ــ ﷺ ــ ، كيف كان يفعل ، وإنّ جبينه يتصبّب عرقا ، وهي تقول : سل بنيّ) .

وقد قالت بعد أن انصرف عنها : (لقد سألني عن مسائل لم يسألني عنها مخلوق قطّ) .

لقد علّمتنا الشّريعة السّمحة ألاّ حياء في الدّين ، فالقرآن الكريم يذكر النّكاح بكلّ بساطة ، وكذلك الرّسول ــ ﷺ ــ علّم المسلمين طريقة الاستنجاء ، والتّمييز بين المياه من بول ومنيّ وودي ومذي بالنّسبة إلى الرّجال ، وبين دم الحيض والنّفاس والاستحاضة بالنّسبة إلى النّساء بدون أيّ حرج . وكتب الفقه فيها أبواب كاملة عن الجماع ومقدماته وآدابه .

لم تعرف حينئذ الثّقافة الإسلاميّة من يومها الأوّل

ما يسمّونه بعقدة الحديث عن الجنس ، أي التحرّج من الحديث في هذا الموضوع . ذاك أنّ حلقات العلم التّي كان يرعاها الرّسول عليه السّلام كان يحضرها الشّيوخ والشّباب والأطفال ، وكذلك حلقات العلم في جميع المساجد الإسلاميّة .

لكن يجب أنّ ندرك أنّ كلّ ذلك كان في غاية الأدب والتأدّب ، بعيدا عن التّسيّب أو الاستهتار ، بخلاف ما تفعله الحضارة المعاصرة بما تعرضه من أفلام فاحشة تصل إلى عرض العمليّات الجنسيّة بدعوى التعلّيم والتّعلّم ، وإنّ هذا لخزي عظيم يدفع المجتمعات إلى الوقوع في الرّذيلة كما نشاهد ذلك في واقع حياة هذه البلدان المتحضّرة .

وعلى المسلم ألاّ ينسى أن النّاظر لعورات النّاس ملعون ، وأنّ المنظور إلى عورته ملعون أيضا ، واللّعن هو الطّرد من رحمة الله ، والعورة : بالنّسبة إلى الرّجال فيما بينهم والنّساء فيما بينهنّ من فوق السرّة إلى تحت الرّكبة . أمّا بالنّسبة إلى المرأة أمام غير محارمها فكلّها عورة سوى الوجه والكفين .

فليتأدّب المسلمون بالآداب الإسلاميّة يحفظ الله كيانهم من كلّ شرّ ، ويبعدهم عن الرّذيلة بما وراءها من ويلات ،

فالفضيلة الفضيلة والعفّة العفّة يا شباب الإسلام .

إنّها لجرأة واضحة من الإمام جابر استفاد منها وأفاد جميع المسلمين عبر الزّمان وعبر المكان ، وتلك هي قيمة السّؤال في طلب العلم .

وكلّنا يعلم آداب السّؤال في حلقات العلم التّي ترفرف عليها الملائكة ويستغفرون لمن يحضرها ، ذاك أنّ السّائل يجب أن يسأل تفقّها وطلبا للمعرفة ، إخلاصا لله تعالى ، فيجلس بين يدي الشّيخ جلسة المتعلّم الرّاغب في الاستفادة ، وليجتنب السّائل الرّغبة في تعجيز الشّيخ أو السّخرية منه .

وعلى الشّيخ المسؤول أن يتحرّى الصّواب بقدر المستطاع عند بسط الجواب مع احترام السّائل وعدم احتقاره مهما كانت بساطة السّؤال .

وبهذا فإنّ العلاقة بين السائل والمسؤول يجب أن تكون علاقة إيمانية ملؤها الودّ والصّفاء والرّغبة في الإفادة والاستفادة .

كلّ هذا نلمسه في مدى تأدّب الإمام جابر وكثرة حيائه حيث كان حينئذ يتصبّب عرقا ، لكنّه لم يتأخّر عن السّؤال لأنّه جاء راغبا في الاستفادة ، كما أنّ السيّدة عائشة ما فتئت

تشجّعه على الاستمرار في مثل هذه الأسئلة الدقيقة ، وذلك لتبلّغ بأمانة ما خصّها الله بتعلّمه بصورة عمليّة عن رسول الله ـ ﷺ ـ ، ومن ذلك أنّها كانت تقول ما رآني وما رأيته وتلك درجة عالية في آداب الجماع .

وحقيق بالإمام جابر أن يحوي ما عند أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها خاصّة إذا علمنا أنّه قضّى عاما كاملا مجاورا في مدينة الرّسول عليه السّلام قصد السّعي إلى استفراغ ما عند الصّحابة من أخبار عن رسول الله ـ ﷺ ـ ، وأنّه يهيّىء أدقّ الأسئلة قبل أن يجلس إلى هؤلاء الصّحابة ، وكذا يجب أن يكون المتعلّم الرّاغب في التّعلّم الحقّ : استيعاب لما مضى من الدّرس ، واستعداد لبقيّة الحلقات بالتّفكير المسبّق والمطالعات الخاصّة المتعلّقة بالموضوع .

بمثل هذا تتحقّق البغية ويحصل المتعلّمون على المراد ، فيشهد لهم شيوخهم بمثل ما شهدت عائشة لجابر بن زيد ، وبمثل هذه الشّهادات يجيزونهم على أن ينقلوا عنهم ما تعلّموا وهكذا تتواصل الحلقات التّي تعرف بسند الدّين ، وهي حلقات سلسلة الرّواة من المتعلّم إلى أن تصل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، وقد حرص المسلمون على متانة هذا السّند وعدم انقطاعه إلى يومنا هذا والحمد لله .

٣ ــ أنس بن مالك

(١٠ ق هـ ــ ٩٣هـ/٦١٢ ــ ٧١٢ م)

نعم أنّه الصّحابي الذّي شهد له أبو هريرة أنّه لم ير أحد أشبه صلاة برسول الله ــ ﷺ ــ منه .

إنّه الصّحابيّ الذّي تعلّم الرّفق في أسمى معانيه من المصطفى ــ ﷺ ــ إذ خدمه عشر سنين فلم يسمع منه قطّ لشيء صنعه أسأت أو بئس ما صنعت .

إنّه الصّحابيّ الذّي كان ضنينا بكلامه ويقول : (من يكثر يهجر) . ومن ورعه أنّه إذا روى عن رسول الله ــ ﷺ ــ يضيف أو كما قال .

إنّه من الصّحابة الذّين دعوا إلى كتابة العلم فقال : (قيّدوا العلم بالكتاب) .

وكما ذكرنا من قبل لقد نهل جابر بن زيد بشغف من معين هذا الصّحابي الجليل وصاحبه ، ويشاء القدر أن يموت التّلميذ قبل شيخه ولكن بأيّام قلائل ، ولمّا بلغ الشيخ الخبر أبى إلاّ أن يشهد بما يعلم فقال : (مات أعلم من على ظهر الأرض) .

ويكفي أنّها شهادة مّمن تعلّم الصّدق من أروع مدرسة

عرفها تاريخ البشريّة ، هي مدرسة الرّسول ــ ﷺ ــ ، تلك المدرسة التّي ما ينطق صاحبها عن الهوى :

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم ــ ٤)

وقد علمنا من قبل أنّ الوحي هو أسمى درجات العلم إذ هو تلقّ عن ربّ العالمين بوجه من وجوه تلقّي الوحي الإلهي .

وما كان لأنس رضي الله عنه أن يبالغ ، وإنّما هو تعبير صادق عمّا أوتيه الإمام جابر من غزارة علم ، وهي شهادة تؤازر شهادة عبد الله بن عبّاس .

فهذا وسام آخر من أوسمة العلم كما يقال اليوم يناله الإمام عن جدارة يدلّ على مدى تفانيه في طلب العلم ، ولا نشكّ في أنّه حوى علم أنس بن مالك ذاك الذّي كانت حصيلة ما بلغنا عنه من أحاديث ٢٢٨٦ حديثا .

٤ ــ جابر بن عبد الله الأنصاري
(١٦ ق هـ ٧٨ هـ/٦٠٧ ــ ٦٩٧ م) :

من أصحاب الرّسول ــ ﷺ ــ غزا معه تسع عشرة غزوة ، وكانت له حلقة في المسجد النّبويّ الشّريف ، روى له أهل الحديث ١٥٤٠ حديثا .

إنّه هو الآخر يشهد لجابر بن زيد مثل شهادة عبد الله بن عباس ذاك أنّه إذا سأله أهل البصرة عن مسألة يجيبهم ثم يقول : (كيف تسألوننا وفيكم أبو الشّعثاء ، يعني جابر بن زيد) .

وهذه شهادة من هذا الصّحابي الكريم أنّ جابر بن زيد حوى ما عنده من حديث رسول الله ــ ﷺ ــ وقادر على أن يفيد منه . بحيث يقوم مقامه ، ويغني الوافدين من البصرة من أجل طلب الفتاوى عن السّفر .

٥ ــ عبد الله بن عمر

(١٠ ق هـ ــ ٦١٣/٧٣ ــ ٥٩٢) :

من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ . نشأ في الإسلام . وهاجر إلى المدينة مع أبيه ، أفتى النّاس مدّة ستين عاما . كان كثير التّحري ميّالا إلى النّقل كثير الاحتراز فيه . عرضت عليه الخلافة فامتنع كما امتنع أبوه من أن يجعله ضمن مجلس الشّورى الذي سينتخب منه الخليفة . له في كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثا . آخر من توفي بمكة المكرّمة من الصّحابة الكرام .

ــ تأمّل في هذا اللّقاء الطّيّب بين الرّجلين :

لقي عبد الله بن عمر جابر بن زيد في الطّواف فقال : (يا جابر إنّك من فقهاء أهل البصرة ، إنّك ستستفتى . فلا

تفتينّ إلاّ بقرآن ناطق ، أو سنّة ماضية ، فإنّـك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت) .

إنّه نعم اللّقاء ، لقاء مبارك في المسجد الحرام ، في جنبات أوّل بيت وضع للنّاس ليعبد فيه الله بحقّ ، لا شكّ أنّـه ليس أوّل لقاء بين الرّجلين ، وإنّما هو لقاء تتويج وتوجيه .

أمّـا التّتويج فيتمثّل في إقرار الصّحابي الكريم بمكانة جابر العلميّة ، فلا شكّ أنّـه جلس إليه المرّات ، وحاوره في عديد من المناسبات ، فهو شيخه بلا منازع ، وجابر يذكر أنّـه حوى ما عنده أيضا .

ما هي هذه المكانة ، إنّـه من فقهاء أهل البصرة ، وقد علمنا مكانة هذه المدينة العلميّة في ذلك الحين ، فجابر من المعدودين في هذه المدينة الحافلة ، ومن المنظور إليهم ، والفقيه هو الذي أدرك درجة القدرة على إعمال الرّأي والاجتهاد .

ذاك هو الإمام جابر في عين عبد الله بن عمر ، إنّـه من فقهاء أهل البصرة ، وهذا وسام آخر .

أمّـا التّوجيه فهو نصيحة غالية من الشّيخ الصّحابيّ للإمام جابر ، فيما أنّـه من الفقهاء فلا شكّ أنّـه سيستفتيه النّاس أي سيستعينون بما وهبه الله من علم لحلّ ما يطرأ في بيئتهم المتطوّرة

من قضايا ، فهو بفقهه هذا معرّض إلى أن يتحمّل أمانة عظيمة في البصرة ، ومثل هذه الأمانة ، أي أمانة الإفتاء للنّاس تحتاج حسب الصحابيّ الكريم إلى تحرّي النّصوص في الدّرجة الأولى ، وتأمّل في صيغة التّأكيد مع الحصر (لا تفتين إلا بقرآن ناطق ، أو سنة ماضية) .

وبهذا يتبيّن الإمام جابر ألاّ سبيل إلى اللّجوء إلى الرّأي إلاّ إذا لم يوجد النّص ، ويا ويل الفقيه الذي يعمل رأيه مع وجود النّص ، والقاعدة تقول : لا اجتهاد مع النّص فإنّك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت .

فالإمام جابر حينئذ من فقهاء البصرة لكن مهما كان علمه فإنّ شيخه يشفق عليه ويدعوه إلى تحرّي النّصوص فيما يصدر من فتاوي .

وكذا كان الإمام عند حسن ظنّ شيخه .

ب) التّابعون رضي الله عنهم

١ ــ الحسن البصري

(٢١ ــ ١١٠/٦٢٤ ــ ٧٢٨) :

كان غاية في الفصاحة ، تتصبّب الحكمة من فيه ، مجالسه في الوعظ مشهورة في البصرة ، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمّة في زمانه .

وكانت العلاقة متينة بينه وبين الإمام جابر بن زيد ، ويكفي دليلا على ذلك أن الإمام جابر عندما حضرته المنيّة لم يشته إلاّ لقاء الحسن البصريّ .

وسنعود إلى الحادثة فيما بعد إن شاء الله ، لكن يهمّنا منها الآن ما قاله الحسن بعد محاورة لطيفة دارت بينهما في هذه اللحظة الحرجة من لحظات الحياة .

قال الحسن : (هذا والله الفقيه العالم) .

إنّ الحسن البصري يعرف معرفة جيّدة غزارة علم صديقه ، فلكم تحاورا في شأن عديد من الفتاوى ، وكثير من قضايا الأمّة ، لكن ما رآه عليه من ثبات وهو يفارق الدّنيا جعله يدلي بهذه الشّهادة لا يريد بها إلاّ وجه الله تعالى ، ووثوقه منها دفعه إلى أن يقسم عليها .

(هذا والله الفقيه العالم) .

٢ ــ قتادة بن دعامة السَّدوسي

(٦١ ــ ١١٨/٦٨٠ ــ ٧٣٨) :

مفسّر ، حافظ ، وكان مع علمه بالحديث رأسا في العربيّة ومفردات اللّغة ، وأيّام العرب ، والنّسب .

لقد بلغ قتادة الثلاثين من عمره عند وفاة الإمام جابر فقد عرفه في البصرة معرفة جيّدة .

إنّـه هو الآخر يدلي بشهادته التّي تدلّ على إعجاب كبير بالإمام جابر ، واعتراف له بالسّبق في علوم زمانه .

ولاشكّ أنّه جلس إليه وأخذ عنه وحفظ من أخباره الكثير ذلك لأنّ المعروف عن قتادة أنّه أحفظ أهل البصرة في زمانه .

نعم إنّـه أدلى بهذه الشّهادة وهو يحسّ بالفراغ الذّي تركه الإمام جابر عند وفاته في مدينة البصرة ، وفي العالم الإسلاميّ آنذاك .

إنّـه لا يريد بهذه الشّهادة إطراء شيخه وقصم ظهره ، بالثّناء عليه ، وإنّما هو اعتراف من صميم الفؤاد بغزارة علم الفقيد .

نعم لقد قال لمن معه : (ادنوني من قبره حتّى وضع يده على هذا القبر) ، ثمّ قال : (اليوم مات عالم العرب) .

إنّـه لا شكّ إقرار بما أدركه الإمام جابر من درجة رفيعة بين أهل زمانه .

٣ ــ إياس بن معاوية
(٤٦ ــ ١٢٢/٦٦٦ ــ ٦٤٠) :

إنّه قاضي البصرة وأحد أعاجيب الدّهر في الفطنة والذّكاء يضرب المثل بذكائه فيقال : (أذكى من إياس) .

لقد قارب إياس الخمسين عندما تُـوُفّي جابر ، معنى ذلك أنّه أخذ عنه الكثير ، وعرف مجلسه العلميّ الزّاخر ، وقدرته على الإجابة على ما يوجّه إليه من أسئلة في محيط كثر فيه السّؤال ، ولا ننسى أنّنا في العراق .

هو الآخر يذكر حقيقة تاريخيّة لا نزاع فيها وهي أنّ الإمام جابر كان المقدّم في الإفتاء في مرحلة من مراحل حياة مدينة البصرة .

ولن يكون المرجع في الإفتاء في مثل مدينة البصرة الزّاخرة بالعلماء من الصّحابة والتّابعين إلاّ من له من الباع ماله في العلم .

ولا ينبغي أن نفهم من هذا أن الإمام جابر يستأثر بالأمر لنفسه أو ينال على الإفتاء أجرا من الدّولة ، أو ممّن يفتي لهم ، ذلك أمر لم يعرفه النّاس آنذاك . وإنّما هو التّعاون بين هؤلاء الصّالحين الذّين يعترفون لبعضهم البعض بالفضل ، ويتعاونون معا للنّهوض بالأمّة الإسلاميّة ، والمضيّ بها قدما ، وذلك بإخضاع كل المستجدّات لأحكام الشّريعة عن طريق الاجتهاد .

هذه هي دلالة شهادة إياس بن معاوية لأنّ المسؤوليّة عند المسلمين تكليف وليست تشريفا .

قال إياس بن معاوية : (أدركت البصرة وما لهم مفت يفتيهم غير جابر بن زيد) .

وهذا عنوان آخر يضاف : **جابر بن زيد مفتي البصرة** .

٤ ــ أيّوب السَّختِيانيّ
(٦٦ ــ ١٣١/٦٨٥ ــ ٧٤٨) :

سيّد فقهاء عصره ، من النّسّاك الزّهّاد ومن حفّاظ الحديث ، روي عنه نحو ٨٠٠ حديث .

لم تبق إلاّ سنوات ثلاث ليبلغ أيّوب الثلاثين من عمره عند وفاة الإمام جابر .

معنى ذلك أنّه عايشه في أعزّ أيّام العطاء ، وتمكّن من التعرّف على أحواله من قريب .

والتّقارب واضح بين الرّجلين ، إذ كلّ منهما يميل إلى الزّهد في الدّنيا في مرحلة من مراحل حياة البصرة يصعب فيها الميل إلى الزّهد ، ذلك أنّها انصبّت عليها كلّ خيرات الشّرق والغرب ، أليست المرفأ الذّي تمرّ منه البضاعة الواردة من الهند والصّين لتنتقل إلى بلاد الشّمال ، والعكس بالعكس .

وهذا أيّوب السّختياني يسأله النّاس : (هل رأيت جابرا ؟) وما يزال صيته ذائعا في مدينة البصرة وغيرها والنّاس يتمنّون

لو أنّهم أدركوه لكثرة ما يروى من أخباره وخصاله ، وهكذا شأن علماء الخير يظلّ النّاس يثنون عليهم ويذكرونهم بخير في كل زمان ومكان .

فيجيب أيّوب : (كان والله لبيبا ، لبيبا ، لبيبا ، من رجل فيه حدّ إلى الله) .

نعم إنّه في عين أيّوب من أولى الألباب أي من أصحاب القلوب الواعية النّيّرة التّي لها مضاء وصلابة ومقصد إلى الخير لوجه الله تعالى ، وذلك بوقوفها عند حدود الله تعالى .

هذا عنوان آخر يضاف : (لبيب فيه حدّ إلى الله) .

نعم تتظافر هذه الشّهادات من خيرة من عرفت هذه الأمّة من الرّجال بعد الرّسول ــ ﷺ ــ لتقرّر ما بلغه الإمام من درجة علميّة سامية .

ذاك هو حينئذ الإمام جابر بن زيد في عين أولئك الصّالحين الذّين عرفوه من قريب ، جدير بأن يكون إماما بحقّ يقتدى به ويؤخذ بأقواله .

إنّه بحقّ كما قال أبو نعيم الأصبهاني (١٠٣٨/٤٣٠) في كتابه حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : (كان للعلم عينا معينا ، وفي العبارة ركنا ركينا ، وكان إلى الحقّ آيبا ، ومن الخلق هاربا) (ج ٣/٨٥) .

الفصل الثاني

عبر من سيرة الإمام
جابر بن زيد الذاتية

الفصل الثاني
عبر من سيرة الإمام جابر بن زيد الذّاتيّة

أجمع أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ وتابعوهم بإحسان أنّ الإمام جابر بن زيد أتاه الله علما واسعا .

وما قيمة العلم إذا لم يتحوّل إلى عمل ؟

إنّ هؤلاء الأعلام لا يمكن أن يعتبر عندهم عالما إلاّ من وافق عمله علمه ، وكذا كان الأمر بالنّسبة إلى الإمام جابر بن زيد .

ــ خيركم خيركم لأهله :

سبق أن ذكرنا غضبه على زوجته آمنة لا لشيء إلاّ لأنّها لم تختر الدّرجة العالية في التوّكّل ، وحالما شكته لشيخه عبد الله بن عبّاس أدرك أنّه قد يحمّلها ما لا طاقة لها به وعادت الألفة بينهما على أحسن حال .

ولإدراك الإمام ما للزّوجة الصّالحة من منزلة في حياة الصّالحين كان يكثر من التّضرّع إلى الله تعالى أن جعل زوجته صالحة ، فكانت آمنة كما يرجو فهو كثيرا ما يصطحبها إلى الحجّ بل مكّنها مرّة من أن تحجّ بنفسها ، ولا شكّ أن ذلك في حدود الشّريعة .

وقد تمّ للإمام أن يجمع بين زوجتين ، والكلّ يعلم أنّ العدل بين الزّوجات ليس بالأمر الهيّن ، وقد قال تعالى :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء ــ ١٢٩) .

وقال أيضا : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ (النساء ــ ٣)

وكثيرا ما أثيرت هذه القضيّة في عصرنا الحديث ، واعتبر أعداء الإسلام تعدّد الزّوجات مطعنا من المطاعن في الإسلام بدعوى أنّ العدل مستحيل مع التّمثيل لذلك ببعض الوقائع من أحوال المسلمين المتردّية التّي ابتعدوا فيها عن الإسلام .

أمّا الأمثلة الرّائعة فإنّ هؤلاء النّاس يغضّون عنها الطّرف ، ويسكتون عنها ، بل يصل الأمر ببعض منهم إنكار وجودها .

نعم إنه الإمام جابر ضرب للنّاس أروع مثال في القدرة على العدل ، إنّه لم يتحدّث عن العدل في اللّباس والطّعام ، والشّراب ، والسّكن ، كلّ ذلك هيّن ، إنّه لم يتحدّث عن قسمة اللّيالي بين زوجتيه ، إنّه يتحدّث عن عدل أرقى من كلّ ذلك ــ يصعب أن يخطر إلاّ على بال أمثال هؤلاء الرّجال

الذين حقّ للمسلمين أن يقتدوا بهم ــ إنّه العدل في القُبلِ !

نعم إنّ الذي يفكّر ــ وهو يلبّي طلب الغريزة الجامحة ــ في إحصاء القبل حتّى يعدل بين زوجتيه لإنسان قادر على أن يملك زمام نفسه ، وعلى أن يعدل فيما ذكرنا وفيما لم نذكر .

هكذا كان يقول الإمام معلّما لمن يجلس إليه متعلّما : (كانت لى امرأتان ، فلقد كنت أعدل بينهما حتّى كنت أعدّ القبل) .

إنّها صورة إيمانيّة راقية في فهم كتاب الله تعالى ، والعمل على الامتثال لأوامره ، يستحيل على العقول التي تدنّست بالرّذيلة أن تدرك لها معنى ، وكيف يمكن للمريض بالحمّى أن يدرك حلاوة العسل ، وقد أفسد المرض ذوقه !

هذا هو الإمام جابر ، وتلك هي علاقته بزوجتيه ، إنّه العدل في أسمى معانيه حتّى في اللحظات التّي يصعب فيها العدل إلاّ على أولي الألباب الذين يعلمون أنّ الله يعلم السّرّ وأخفى .

وقد كان الإمام فعلا من أولي الألباب ، إذ أدرك أنّ في الجمع بين زوجتين أجرا عظيما لمن يقدر على العدل ، وهو عليم أنّ معاشرة الأزواج ليست ضربا من العبث ، بل هي عبادة من أسمى العبادات ، ألم يقل المصطفى عليه السّلام أنّ

من تزوّج فقد ملك نصف دينه ؟ وألم يبيّن لأصحابه أنّ المسلم يلبّي نداء فطرته ويؤجر على ذلك ؟

ــ أحسن إلى من أساء إليك :

كما أنّ الإمام كان حريصا على أن يغرس المثل الأخلاقيّة السّامية في أهله ، ولنتأمّل معا في هذه الحادثة الطّريفة التّي سبق أن أشرنا إليها .

خرجت آمنة زوجة جابر إلى الحجّ ، ولم يخرج تلك السّنة ، فلمّا رجعت سألها عن كريّها (الذي اكترته ليساعدها) فذكرت سوء الصّحبة ، ولم تثن عليه بخير .

فخرج إليه وأدخله دارا ، واشترى لإبله علفا ، وعولج له طعام ، واشترى له ثوبين كساه بهما ، ودفع له ما كان مع آمنة من قربة وأداة وغير ذلك .

فقالت : أخبرتك بسوء الصّحبة ففعلت ما أرى !

فقال : أفنكافيه بمثل فعله فنكون مثله ، لا بل نكافيه بالإساءة إحسانا وبالسّوء خيرا .

إن شريعة الإسلام لم تحرّم على المسلمين القصاص وإرجاع الإساءة بمثلها .

ولكن جعلت فوق ذلك درجة وهي العفو ، أي التّنازل عن الحقّ ، قال تعالى :

﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(التغابن ــ ١٤)

ولم يكتف الإمام بهذه الدّرجة بل ارتقى إلى الدّرجة الأسمى وهي مقابلة الإساءة بالإحسان كما كان يفعل الرّسول ــ ﷺ ــ مع كلّ من يسيئون إليه إذ يقول : (أحسن إلى من أساء إليك) .

ياله من درس عمليّ راق يلقّنه الإمام لزوجته ولكريّها ، وإنّنا لنعتقد أنّه أبعد أثرا في النّفوس ممّا لو تسفّل الإمام كما قال ، وقابل الإساءة بمثلها .

ــ القليل من متاع النّاس يورّث النّار :

كان جابر بن زيد يتحدّث مع بعض أهله فمرّ بحائط قوم فانتزع منه قصبة فجعل يطرد بها الكلاب عن نفسه ، فلمّا أتى البيت وضعها في المسجد .

فقال لأهله : (احتفظوا بهذه القصبة فإنّي مررت بحائط قوم فانتزعتها منه) .

قالوا : سبحان الله يا أبا الشّعثاء ! ما بلغ بقصبة ؟

فقال : لو كان كلّ من مرّ بهذا الحائط أخذ منه قصبة لم يبق منه شيء .

فلمّا أصبح ردّها .

لقد أدرك الإمام جابر معنى قوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ (الزلزلة ٩٩)

ومعنى قوله تعالى :

﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

(الأنبياء ــ ٤٧)

نعم إنّ القصبة عندما تقدّر بهذا الميزان لا تعتبر قليلا من متاع النّاس بل هي كثير كثير ، إذ كم تضمّ من الذّرات ، إنّها ملايين الملايين .

وكان يمكن للإمام أن يردّ هذه القصبة مكانها دون أن يجعل منها موضوعا للحديث ، وإنّما أراد من وراء تنبيه أهله أن يبيّن لهم حرمة حقوق النّاس ، نعم إنّه أخذ القصبة مضطراً ليدفع عن نفسه شرّ الكلاب ، لكن وقد حفظ من الشرّ ، وقد زالت الضّرورة ، فلترجع القصبة إلى حائط أصحابها ، والحائط هنا هو سياج من قصب ، وليس جدارا كما قد توحي العبارة .

والطّريف في الأمر هو أنّه عندما أراد أن ينبّه أهله لما يَنْجُمُ عن التّهاون في القليل من متاع النّاس افترض افتراضا ملموسا يمكن وقوعه ، وهو أنّه لو أنّ كلّ من يمرّ بهذا السّياج أخذ منه قصبة لزال السّياج في وقت قصير .

ولا شكّ في أنّ الإمام جابر كانت تتردّد في خاطره وهو ينبّه أهله صورة الرّسول ــ ﷺ ــ وهو يعرّف لأصحابه القليل عندما سألوه عن القليل عندما قال : (القليل من متاع النّاس يورث النّار) فوضع عليه الصّلاة والسّلام إصبعه الكريمة في التّراب ورفعها وقال : (هذا هو القليل) ، أي ما التصق ببشرة إصبعه الكريمة من ذرّات تراب .

نعم إن الميزان واحد ، فميزان النبوّة هو ميزان الله تعالى .

هذا أيضا درس آخر من دروس الإمام جابر لأهله حتّى يدفعهم إلى الحرص على احترام حقوق الآخرين مهما صغر شأنها في أعينهم .

وبهذه المعاني وأمثالها يمكن أن ترقى الأمّة وأن يستتبّ فيها الأمن ، وأن يطمئنّ النّاس على متاعهم وإن بقي معروضا في الطّريق لا ترعاه إلاّ عين الله .

وما أحوج العالم اليوم إلى مثل هذه المعاني السّامية ، هذا

العالم الذّي صار الإنسان في مواطنه المتحضّرة لا يطمئنّ لا على نفسه ، ولا على ماله ، ولا على عرضه .

ــ سؤال الكفاف من الله تعالى :

لقد كان في إمكان الإمام جابر أن يختار الدّنيا لأنّ كلّ الفرص كانت سانحة ، ولكنّه فضّل حياة الكفاف على حياة التّرف .

إنّ النّاس إذا توجّهوا إلى الله بالدّعاء يرجون توسيع الأرزاق ، وعدم الحرمان من زينة الدّنيا ، لكن الإمام يتورّع عن ذلك وحتّى سؤاله إلى الله فريد من نوعه ، إنّه لا همّ له في الدّنيا ، لأنّه يعلم أنّها مطيّة للآخرة ، فلتكن مجرّد وسيلة فحسب ، لأنّها إذا كانت غير ذلك قد تغري صاحبها ، وتؤدّي به إلى الهلاك .

ماذا يطلب الإمام من ربّه ؟

(سألت ربّي عن ثلاث فأعطانيهنّ ، سألت زوجة مؤمنة ، وراحلة صالحة ، ورزقا حلالا كفافا يوم بيوم) .

ذلك هو رجاء الإمام جابر من ربّه ، إنّه الزّهد وكفى ، إنّه التّأسّي بالمصطفى ــ ﷺ ــ الذّي لم يكن له من الدّنيا إلاّ الكفاف ، ولم يترك في بيته عند وفاته إلاّ القليل ، بل مات عليه السّلام ودرعه مرهونة .

فحريّ بمن يتأسّى به أن يكون طلبه إلى الله تعالى أن يكون نصيبه من الدّنيا ما طلب لأنّ الآخرة خير وأبقى ، ونشعر من كلام الإمام أنّه يحمد الله كثيرا على توفير ما طلب ، لأنّه قادر على أن يحرمه من ذلك ابتلاء .

ــ الغنى غنى القلب :

الغنى في اللغة ، وعند أغلب النّاس يعني كثرة المال والممتلكات بجميع أنواعها .

لكن الغنى عند الإمام جابر شيء آخر ، استمع إليه .

يقول لأصحابه : (ليس منكم رجل أغنى منّي ، ليس عندي درهم ولا عليّ دين) .

وكذا بيّن الرّسول ــ ﷺ ــ لأصحابه أنّ الغنى الحقيقي إنّما هو غنى القلب ، ذلك أنّ الذي لم يملأ قلبه بحبّ الله تعالى ، فإنّك وإن ملّكته مال قارون فإنّه دائما يقول هل من مزيد ! لأنّ المال يجلب المال ، كما يقول أهل الاقتصاد اليوم .

ولا شكّ أنّ الإمام يدرك أنّه قلّ من أقبلت عليه الدّنيا وسلم من مغرياتها .

لذلك تراه يعتزّ بين أصحابه في مناسبات عديدة بأنّه لا يملك من الدّنيا إلاّ حمارا .

ــ الدّنيا لا تساوي نعلا بالية :

أتى الإمام جابر ذات يوم أصحابه في مصلاّهم وعليه نعلان خلقان ، فقال : (مضي من عمري ستون سنة ، نعلاي هاتان أحبّ إليّ مّما مضى ، إلاّ يك خيرا قدّمته) .

يالها من معادلة حسابية معبّرة ، نعلان خلقان توضعان في كفّة ، وستّون سنة من الحياة في الدّنيا في كفة ، النّعلان ترجحان ، هذه هي الدّنيا لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء .

نعم إنّ الدّنيا لا قيمة لها إذا خلت من العمل الصّالح ، لذلك استثنى الإمام جابر ما قدّمه من خير إخلاصا لله تعالى ، وهو يعلم أنّ الدّنيا إذا خلت من العمل الصّالح لا يمكن أن تبقى فراغا أو حيادا ، وإنّما هي تملأ عملا طالحا .

فالنّعلان أفضل منها لأنّهما تحفظان الأقدام من الضرّر ، بينما تجّر الدّنيا التّي عمرها صاحبها بالشّرّ إلى غضب الله تعالى ، وإلى جهنّم وبئس المصير .

ــ الإمام جابر مسلم عند الدّرهم والدّينار :

هكذا قال إمام وقته في علوم الدّين بالبصرة ذاك الرّجل الذي اشتهر بالورع ، إنّه محمد بن سيرين

(٣٣ ــ ١١٠/٦٥٣ ــ ٧٢٩) (كان أبو الشعثاء مسلما عند الدّينار والدّرهم) .

وما أصيب هذا المعنى وقد نظم شعرا :

إنّي رَأيْتُ فَلاَ تَظُنُونَ غَيْـرَهُ إنّ التَوَرّعَ عِنْدَ هَذاَ الدَّرْهَمِ
فَإذاَ قَدَرْتَ عَلَيْهِ ثُـمّ تَركْتَـهُ فَاُعْلَمْ بِأنّ تُقَاكَ تَقْوَى المُسْلِمِ

نعم إنّـه الإمام قد اكتفى من الدّنيا بالكفاف ، والغنى عنده ألاّ تملك درهما ، وألاّ يكون عليك دَيْـنٌ .

وتتجلّى درجة التّقوى لدى الإمام جابر في صنيعه بالدّراهم المزيّفة .

لقد كان إذا وقع في يده درهم سَتُوقٌ (أي مزيّف) كسره ورمى به ، يعني لئلا يغري مسلما به .

إنّها الحضارة ، إذا دخلت البلاد من بابها الواسع لابدّ من أن تورّث التّرف ، والتّرف مؤذن بخراب العمران كما قال ابن خلدون .

ومن مظاهر التّرف ما ينتشر في الأمّـة من تزييف للعملة وقد عرفت البصرة هذا الدّاء .

فلم يكن من الصّالحين إلاّ أن يتخلّوا عن هذه النّقود المزيّفة

عندما تقع في أيديهم مهما كلّفهم ذلك من خسارة ، وهذا الإمام جابر واحد من أولئك حيث لم يكن ليسمح بأن يخرج من يده فلس مزيّف ، بل مصيره التّكسير وإبعاده عن التّداول بين النّاس .

وليس من السّهل على الإنسان ــ إلاّ بالنّسبة إلى من كانت همّته كهمّة الإمام جابر ــ أن يكون ضحيّة لعبث غيره .

ولكن الإمام يدرك أنّه ليس خاسرا بهذه العمليّة ، بل إنّه الرّبح الحقّ ، إذ يحوّل من رصيد دنياه الفانية ، إلى رصيد أخراه الباقية .

ذاك هو المسلم عند الدّرهم والدّينار ، وما أطيب مثل هذا الإسلام لأنّه يربط بين العقيدة والقول والعمل ، ولا تتجلّى صلابة العقيدة إلاّ إذا عرضت على محكّ العمل .

ــ الصّدقة أفضل من حجّ النّفل :

واستمع إلى الإمام جابر يعظّم أمر الإنفاق على المحتاجين إذ يقول : (لأن أتصدّق بدرهم على يتيم أو مسكين أحبّ إليّ من حجّة بعد حجّة الإسلام) .

والرّجل يعرف قيمة الحجّ النّفل لأنّه التزم بأدائه سنويّاً إلاّ في القليل النّادر .

وتحريض الإسلام على الإنفاق لا يخفى على أحد من المسلمين ، وهو أساس التّكافل في المجتمع ، وهنا أيضا يتجلّى المسلم بحقّ عند الدّينار والدّرهم ، إذ يؤثر غيره بما وهبه الله رجاء ثبوت الأجر من عند الله تعالى .

ــ لا مماكسة فيما يتقرّب به إلى الله تعالى :

كان الإمام جابر لا يماكس في ثلاث : في الكراء إلى مكّة ، وفي الرّقبة يشتريها للعتق ، وفي الأضحية ، فهو حينئذ لا يماكس في كلّ شيء يتقرّب به إلى الله عزّ وجلّ .

فالإمام حينئذ يدرك أن الفلس الذّي ينفق في التّقرّب إلى الله هو الفلس الذّي يربحه المسلم بحقّ لأنّه يدّخره ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم .

والمماكسة في شأنها أن تنقص من القدر الذّي ينفق ، بل لعلّها في بعض الأحوال تغبن الشّخص المماكس ، وفي كلا الحالين يكون المماكس عاملا على الإنقاص من أجره عند الله ، بل إذا وصلت المماكسة إلى غبن الطّرف الآخر يتحوّل الأمر إلى الإثم ، ولا يصحّ أن ينطلق المسلم في عبادة مالية بإثم ، وأيّ إثم أكبر من أن تغبن غيرك ، وذلك باستغلال ضعفه واحتياجه .

وليدرك المسلم أنّ الفلس الحرام يمكن أن يأتي من هذا الجانب ، وهو أن توفّر لنفسك على حساب غيرك ، مهما كانت وظيفته ، كريّا ليرافق النّاس إلى الحجّ أو بائع غنم ، أو صانعا ، أو ما إلى ذلك .

وهنا أيضا يكون الإنسان مسلما عند الدّرهم والدّينار وذلك بعدم غبن حقوق الآخرين مهما قلّت .

وعدم المماكسة مكسب خاصة بالنّسبة إلى الأعمال التعبّديّة لأنّه يكلّف نفقة أكثر فيكون الأجر أكثر ، بقي أنّ المسلم لا يجب أن يكون غرّاً حتّى يقع في تشجيع الغشّاشين ، وإن لم يماكس ففي التحوّل من أجير إلى أجير ، أو من صاحب بضاعة إلى صاحب بضاعة مماثلة فسحة .

ـ الرّاحلة الصّالحة :

لقد علمنا أنّ من بين الطّلبات التّي يلحّ فيها الإمام على الله ، ويشكر الله أن وهبه إيّاهنّ الرّاحلة الصّالحة .

قال تعالى :

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ (النحل)

نعم لقد كان للرّاحلة شأن عظيم عند جميع الأمم ، وقد تغنّى العرب من جاهليتهم بما للمطيّة من فضل ، بل جعلوا وصف الرّاحلة عنصرا قارّاً في قصائدهم المعروفة بالمعلّقات ، لأنّها تعلّق على جدران الكعبة بعد أن تكتب بماء الذّهب عندما يحكم لها بالتّفـوّق في سوق عكاظ .

وقد أحبّ الرّسول ــ ﷺ ــ ناقته وكان يلقّبها بالقصواء ، وهي التي أراد لها الله تعالى أن تحطّ الرّحال في المكان الذّي أقيم فيه المسجد النّبويّ الشّريف ، والرّسول عليه السّلام يقول لأصحابه : (دعوها فإنّها مأمورة) .

من هنا نفهم لماذا يسأل الإمام جابر ربّه الرّاحلة الصّالحة ، وقد ذكرت الآيات التي أوردنا أنّها من عناصر الزّينة في الحياة ، وأنّ الله سخّرها لركوبنا ، ولتحمل أثقالنا إلى الأماكن النّائية التّي لا نبلغها إلاّ بشقّ الأنفس ، وجعل لنا فيها منافع أخرى ، وبيّنت الآيات أنّ الله يخلق مالا يعلم النّاس آنذاك ومالا نعلم نحن اليوم .

إنّ حبّ الرّاحلة جبلّة في الإنسان لأنّها تكمّل ما فيه من نقص ، وأوّل ما يطالب به الأولاد آباءهم الدّرّاجة أو ما شابهها ، وهي من أطيب الهدايا التّي يفكّر الأولياء في مجازاة أبنائهم بها عندما يتفوّقون في عمل ما .

ثمّ جاءت السّيّارة ، ثمّ الطّائرة ، ثمّ يعلم الله ما يأتي من مطايا تطوي الإنسان الأرض والجوّ والبحر .

وقد علمنا أنّ الإمام يعتزّ بأنّه لا يملك من الدّنيا إلاّ حمارا ، بينما يتفاخر النّاس ببغالهم وخيولهم ، وذلك تواضعا منه ، وميلا إلى الزّهد لأنّ ركوب الجمال والحمير لا يدفع الرّاكب إلى الخيلاء ، وإنّنا نعلم أنّ خليفة المسلمين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لازم بغلته على بساطتها ومرقّعته حتّى في المواقف الرّسميّة التّي يمثّل فيها الدّولة الإسلاميّة النّاشئة ، ومن ذلك رفضه ما عرض عليه من الخيول عندما قصد بيت المقدس ليستلم مفاتيحه بعد أن فتحه الله على أيدي الفاتحين المخلصين لربّ العالمين .

فلا عجب إذن من اعتزاز الإمام بأنّه لا يملك من الدّنيا إلاّ حمارا ، وفي ذلك كفاية ، لأنّه يؤدّي الغرض المطلوب ، وهو تيسير التّنقّل .

لكّنه إلى جانب ذلك كان يتأسّى بالرّسول عليه السّلام بالرّحلة إلى الحجّ على النّاقة سفينة الصّحراء ، واستمع إليه يحدّث أحد أصحابه : (لي ناقة أقف عليها بعرفة ، اسمها جزوة ، ما أحبّ أنّ لي بها بعيرا أقف عليه بعرفة ، أعطيت

بها مائتي دينار) فقال له صاحبه يلاطفه : (يا أبا الشّعثاء لو كنت عندك لبعتها عليك) .

وله مع هذه النّاقة قصّة طريفة : كان الإمام جابر بن زيد يحجّ كلّ سنة ، فلمّا كان ذات سنة بعث إليه والي البصرة ألاّ يبرح العام فإنّ النّاس يحتاجون إليك ، فقال : لا أفعل فحبسه .

فلمّا كان غرّة ذي الحجّة جاءه النّاس فقالوا : (أصلحك الله قد هلّ هلال ذي الحجّة) فأرسل إليه وأخرجه من السّجن .

فأتى الإمام منزله ، وله ناقة كان قد أعدّها للخروج فأخذ يشدّ عليها الرّحال ويقول :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ (فاطر ــ ٢)

ثمّ قال : يا آمنة أعندك شيء ؟

قالت : (نعم) .

قال : (اجعليه في جرابي) .

فهيّأته في جرابين .

ثمّ قال : (من سألك فلا تخبريه بمسيري يومي هذا) .

فخرج من ليلته ، وانتهى إلى عرفات والنّاس بالموقف ،

فضربت النّاقة الأرض بجرانها (باطن عنقها) ، وتجلجلت (أحدثت صوتا علامة على شدّة (التّعب) . فقال النّاس : ذكّها ، ذكّها ، (اذبحها) يا أبا الشّعثاء ، فقال : حقيق لناقة رأت هلال ذي الحجّة بالبصرة أن تفعل هذا ، ثمّ سلّمها الله .

ياله من دعاء إلى الله (ربّ هب لي راحلة صالحة) ، فلولا فضل الله تعالى ، ثم لولا هذه النّاقة الصّالحة لما تحقّق للإمام مثل هذا التحدّي لمن أراد أن يحول بينه وبين مؤتمر المسلمين السّنوي في رحاب البيت العتيق .

إنّها ثمانية أيّام قطعت فيها هذه النّاقة الجزيرة العربيّة من شرقها إلى غربها ميمّمة نحو الجنوب إلى بلد الله الحرام مكّة المكّرمة .

نعم إنّه فضل الله الذّي يسرّ لهذه الرّاحلة الصّالحة أن تطوى لها الأرض طيّاً ، وهي بالمسلك خبيرة لأنّها قطعت هذه المسافة أربعا وعشرين مرّة ذهابا وإيابا ، لكنّها في المرّات الأخرى كانت تسير مع الرّكبان بمشية معتدلة ، بينما هذه المرّة جمعت بين السّرعة والغربة لكن الله تمّم الرّحلة بخير . تلك ثمرة من ثمرات الإخلاص لله تعالى .

نعم إنّ الإمام لم يستسلم ، و لم يركن إلى الرّاحة لذلك ظلّ يردّد قول الله تعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ (فاطر ــ ٢)

فاستجاب الله لدعائه ، وفتح عليه من رحماته ، وأوصله في اللّحظات المناسبة إذ نعلم أنّ الحجّ عرفة ، فمن وقف بها تمّ حجّه ، إذ بالإمكان قضاء بقية الأركان .

ذلك فضل الله :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (الطلاق ــ ٣)

وقد توكّل الإمام على الله بحقّ فلم يخيّبه .

نعم ناقة عزيزة ، ولو كان الإمام يقول الشّعر لنفث من صدره عشرات القصائد ، ولكن قد كفاه تعبيرا عن مدى تعلّقه بهذه النّاقة أنّه عرض عليه ثمن مغر للغاية فامتنع ، وأنّ النّاس أمروه بذبحها لأنّها كانت على وشك الموت حتّى لا يضيع ماله فأبى ، وعبّر عن مدى اعتزازه بها : (حقّ لناقة رأت هلال ذي الحجّة بالبصرة أن تفعل هذا) .

وفعلا قد سلّمها الله له ، إنّها لا شكّ جزوته التّي كانت له أحسن المساعد ، وأفضل أنيس في هذه الرّحلة التي لا تنسى .

ذلك هو فضل الله على النّاس لعلّهم يشكرون ، وإن كانت النّاقة اليوم قد تجاوزها الزّمن ، بل تحوّلت في بعض البلدان إلى مورد من موارد الرّزق الحرام ، حيث تسخّر للرّهان على السّباق ، وذاك أمر ما أنزل الله به من سلطان ، فقد منّ الله على العالمين بأطيب العطايا التي يصدق عليها قول الله تعالى أيضا

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل ٧)

نعم إنّ ربّنا لرؤوف رحيم ، ومَنْ منَ النّاس كان يحلم أن تطوى له الأرض في سيّارة قادرة على أن تخرق الصّحاري ، وتصعد الجبال ، وهي رهن إشارة صاحبها ، يجلس داخلها على فراش وثير ، فتهبه مما يدّخر في جوفها ماء عليلا ، ونسيما عليلا ، بينما تتجاوز درجة الحرارة في المحيط الخمسين ، أفلا نكون من الشّاكرين ؟

ومن كان يحلم أن يطوى له الجوّ ، ليست إلاّ سويعات قلائل وإذا بالإنسان يجوب البلاد من قارّة إلى قارّة ، لا من مدينة إلى أخرى ، أو من بلد إلى آخر ، وهو من بطن هذه المطيّة يشرف على الأرض إشرافا ، وقد يحول بينه وبينها

السّحاب ، ذاك الذي حيّر عقول العباد ردحا من الزّمن ، نعم إنّ هذه المطيّة تدّر عليه ممّا فيها من خيرات ، فإذا بطعام شهيّ ، وماء زكيّ ، ومضيّفين ومضيّفات بين ذهاب وإياب . أفلا نكون من الشّاكرين ؟

ولا أتحدّث عن الصّاروخ لأنّه لم يستعمل بعد مطيّة للنّاس أجمعين ، وذلك ليس منّا ببعيد ما دامت هذه المركبات صارت قادرة على أن تزيح من أمامها ما يعترضها من خطر مفاجيء على ما جعل الله فيها من سرعة . أفلا نكون من الشّاكرين ؟

وأين الشّاكرون ؟ سبحان الله إزاء هذه النّعم تجد الإنسان لا يعتبر ، ويعجبه أن يسخّر هذه المطايا للحرام ، فإذا بالسّيارة وسيلة لإغراء النّساء ، وإذا بالطّائرة تشحن خمرا ، ويؤتى فيها الزّنا أو مقدّماته على عيون الملأ ، وإذا بها تعرض فيها الأفلام الفاحشة ، وإذا بالمضيّفات يكنّ كاسيات عاريات إلخ . ياله من كفر بنعم الله .

ويالها من دعوة صالحة (ربّنا هب لنا راحلة صالحة).

ـ الحجّ من أفضل أعمال البرّ :

لقد علمنا لمَ تستعمل الرّاحلة الصّالحة عند الإمام جابر ، إنّها تستعمل للحجّ إلى بيت الله الحرام .

وها هو الإمام يفاضل بين أعمال البرّ فيقول : (نظرت في أعمال البرّ فإذا الصّلاة تجهد البدن ولا تجهد المال ، والصّيام مثل ذلك ، والحجّ يجهد المال والبدن ، فرأيت أنّ الحجّ أفضل من ذلك) .

قال تعالى :

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (المائدة ـــ ٤٨)

وقال تعالى :

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ (المطففين ـــ ٢٦)

نعم إنّ الإسلام جعل الدّنيا ميدانا فسيحا للسّباق ، ذاك أنّ من طبيعة الإنسان أنّه يرغب في أن يكون الأوّل ، ويعاف أن يكون في آخر الرّكب .

وقد كلّف الله الإنسان بإتيان البرّ واجتناب الشّرّ ، ومكّنه من عقل قادر على التّمييز بينهما ، وبيّن له أنّ من يأتي البرّ ويجتنب الشّرّ يكون من الفائزين ، (ومن يأتِ الشّرّ ويغفل عن البرّ يكُنْ من الخاسرين) ، وعرّف النّاس بحقيقة الجزاء فهو جنّة نعيم مع مرضاة ربّ العالمين للعاملين ، وجهنّم وبئس المصير وغضب ربّ العالمين لغير العاملين .

نعم إنّ ميدان التّنافس بلا حدود ، لأنّ أعمال البرّ لا يمكن

أن تحصى ، ما دام الشّكر على النّعمة برّاً يجازى عليه الإنسان .

لذلك نرى الصالحين من أمثال الإمام جابر بن زيد يتأمّلون في أعمال البرّ ، وهم يعلمون أنّها كلّها فضل ، لكنّهم يرغبون في الدّرجات الأسمى فيختارون العمل الذّي يكسب أجرا أكثر .

لا شكّ أنّ فضل الصّلاة عظيم ، وكذلك الصّوم ، لكنّهما لا يجهدان إلاّ جانبا من جوانب نعم الله على الإنسان ، وهو جانب سلامة الجسم .

أمّـا الحجّ فإنّه عبادة بدنيّة ماليّة ، فيضاف جانب الابتلاء في المال ، والمال قطعة من الكبد ، وكثيرا ما يبخل به الإنسان ، فالحجّ عبادتان في نفس الوقت .

ولا ينبغي أن ننسى أن الصّلاة لا تتوقّف مع الحجّ ، وكذلك عبادة صيام النّفل .

لهذا نفهم لماذا كان الإمام جابر لا يتخلّف عن الحجّ إلى جانب ما يوفّر للحاجّ من سعة أفق .

نعم إنّه مؤتمر عالمي سنوي يمكّن الحاج من مواكبة أحوال الأمّة شرقا وغربا إذ لا سبيل آنذاك إلى أن يتعرّف الإنسان البصري على أحوال إخوته في افريقية بصورة مستمرّة إلاّ عن طريق الحجّ .

وقد علمنا أن الإمام جابر قد اكتفى بالالتزام بهذه الرّحلات المباركة المقدّسة عن الرّحلات إلى مواطن أخرى إذ لم نعلم أنّه رحل إلى موطن آخر ، وذلك يوفّر عليه وقتا ثمينا ، لأنّ مكّة والمدينة هما ملتقى المفكّرين والعلماء ، وبالالتزام بزيارتهما يكون الإلمام ، وتكون سعة الاطّلاع .

وليس من السّهل على الإنسان أن يلتزم بالفرض فما بالك بمن يلزم نفسه بالنّفل ؟

إنّها لا شكّ درجة إيمانيّة عالية ، وهذا ليس بالغريب على من سبلّوا حياتهم في سبيل الله عن طريق كسب العلوم ، والعمل بها ، وتبليغها للعالمين ، وكذا كان منهج الإمام جابر رحمة الله عليه ، وقد علمنا من قبل اعتراف القاصي والدّاني له بغزارة العلم .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى ــ ١١)

(أدركت سبعين من أهل بدر من أصحاب النّبي ــ ﷺ ــ فحويت ما عندهم إلاّ البحر «يعني ابن عباس») هكذا يقول الإمام شكرا لله .

أنعم بها حينئذ من رحلة مكّنت الإمام من أن يلتقي بسبعين ممّن شهدوا غزوة بدر الكبرى من أصحاب الرّسول

ـ ﷺ ـ ، معنى ذلك أنّ بقية من التقى بهم من الصّحابة الكرام لا يكاد يحصى ، كلّ ذلك بين مكّة والمدينة والبصرة .

وهذا لا شكّ أنّه غرض من أغراض الحجّ ، إذ ليس الحجّ مجرّد أداء مناسك ، وإنّما إلى جانب المناسك منافع لا تحصى ، وعلى رأسها التّعليم والتّعلم .

ـ الدّعـاء الصّـالح :

كان الإمام جابر يوصي بالدّعاء التّالي يوم الجمعة فيقول : (إذا جئت يوم الجمعة فقف على الباب) وقل : (اللهم اجعلني اليوم أوجه من توجّه إليك ، وأقرب من تقرّب إليك ، وأنجح من دعاك وطلب إليك) .

إنّه الدّعاء الصّالح ، وكلّنا يعلم ما له من قيمة في حياة المسلم ، ذلك أنّه يدرك أنّه لا حول ولا قوّة له بدون عون الله وتوفيقه .

يالها من نعمة منّ الله بها علينا لنكون على اتّصال مباشر به ، ونطلب منه ما نريد من أمور الدّين والدّنيا والآخرة . قال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

(البقرة ـ ١٨٦)

وقال أيضا :

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر ـــ ٦٠)

نعم إن الله عند حسن ظنّ العبد به ، فليدع وهو موقن بالإجابة ، بعد الالتزام الكامل والمخلص لما أمر الله به ، والانتهاء المطلق عمّا نهى الله عنه .

هكذا كان شأن الأنبياء والرّبل والصّالحين .

وتأمّل معي في دعوات الإمام جابر تجد أنّه يرجو من الله تعالى أن يجعله الأفضل .

إنّه لا يريد أن يكون عند الله وجيها فحسب بل أوجه من يتوجّه إليه .

إنّه لا يريد أن يكون قريبا إلى الله فحسب ، بل أقرب من يتقرّب إليه .

إنه لا يريد أن يكون دعاؤه مستجابا فحسب ، وأن تتحقّق طلباته فحسب ، بل يريد أن يكون الأنجح في كلّ ذلك .

وحقيق بالإنسان أن يتوق إلى الدّرجة الفضلى ، فإن هو أدركها فذلك ما كان يبغي ، وإن لم يدركها فستكون درجته أقرب ما يكون إلى الأفضل .

وهو لا يستأثر بهذا الدّعاء لنفسه ، وإنّما يعلّمه لأصحابه وأحبابه حتى يعلّمهم السّعي إلى الدّرجات العلى ، وكذا شأن أصحاب الهمم العالية .

الفصل الثالث

عبر من سيرة الإمام جابر بن زيد في خضم المجتمع والسياسة

الفصل الثالث
عبر من سيرة
الإمام جابر بن زيد
في خضم المجتمع والسّياسة

١) الإمام جابر في المجتمع :

لقد كان الإمام جابر بن زيد علما من أعلام مدينة البصرة ، وكانت له حلقة بجامعها قبل الحسن البصري ، وكان مفتي أهل هذه المدينة ، يرجعون إليه في كل حين .

فهو من أهل العلم الذّين اختاروا الاحتكاك بالأمّة ومعايشتها في سرّائها وضرّائها ، وقد جمعت فتاوى الإمام وآراؤه الموزّعة في أمّهات الكتب فجاءت مجلّدا يضمّ سبعمائة صفحة . ولا نريد أن نحلّل هذه الفتاوى ، وإنّما نريد أن نتتبّع الإمام في بعض المواقف المأثورة عنه لنستجلي منها بعض العبر .

أ) الدّعوة إلى الاعتبار : العمل حين قبول العمل :

أصاب النّاس على عهد جابر بن زيد ظلمة وريح ورعد ، ففزعوا إلى المساجد ، وخرج الإمام جابر إلى بعض المساجد فجلس يذكر الله ، والنّاس في تضرّع وضجّة .

فلمّا انجلت تلك الرّيح وتلك الظّلمة أخذ النّاس ينصرفون إلى أسواقهم ومنازلهم .

فدعا الإمام قوما كانوا قريبا منه فقال لهم (ما كنتم تظنّون هذا الأمر) ؟

قالوا : (خفنا أن تكون القيامة قد قامت) .
قال : (إنّما خفتم طيّ الدنيا والإفضاء إلى الآخرة) .
قالوا : (نعم) .
قال : (لقد خفتم أمرا عظيما ، فحقّ عليكم أن تخافوه) .
ثم قال : (أين تذهبون الآن) .
قالوا : (إلى منازلنا) .

قال : (لقد خفتم أمرا عظيما ففزعتم إلى الدّعاء ، ولو جاء ما خفتم لم يغن عنكم شيئا ، فالآن إذ ردّ عليكم دنياكم فاعملوا حين قبول العمل ، وأمّا ما كنتم فيه فلو كان الأمر ما خفتموه لم يغن عنكم دعاؤكم من الله شيئا) .

إنّه كما يقال : **لكل مقام مقال** .

فها هو الإمام جابر يتحيّن فرصة لانت فيها القلوب ليعظّ النّاس ويذكّرهم بحقيقة كثيرا ما يغفل عنها الإنسان ، وهي أنّه لا يستحضر عظمة الله إلاّ في أحوال الشدّة ، ثمّ عندما تزول الشّدّة يعود إلى ضلاله القديم .

وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى :

﴿ ٢١ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٣ ﴾

(يونس)

نعم إنّ الإنسان لمغرور فهو مثل راكب السّفينة إذا دفعتها الرّيح الطّيبة اطمأنّ أهلها ، وإذا عبثت بها العواصف يدركون ألاّ ملجأ من الله إلاّ إليه ، فيتوجّهون إليه بإخلاص طالبين النّجاة ، لكن عندما يستجيب الله لهم وينجّيهم يعودون إلى ما كانوا عليه من غفلة .

وفعلا إنّ أهل البصرة تصوّروا أنّ القيامة قد قامت ، فلجأوا إلى المساجد يتضرّعون إلى الله ، لكن حالما أحسّوا أنّها عاصفة عابرة وعادت المياه إلى مجاريها عادوا إلى حياتهم العاديّة .

وهنا جاء تنبيه الإمام ، وهو أنّه إذا قامت القيامة ، وكلّ

آت قريب ، لا ينفع الدّعاء ولا العمل لأنّ باب التّوبة يكون قد أغلق بعد .

ولذا على الإنسان أن يعمل في الرّخاء ليجني ثمرة عمله عند الشّدائد .

وصدق الله في قوله :

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ (عبس ــ ١٧)

نعم إنّ الإنسان لكفور أي سرعان ما ينسى النّعمة ويجحدها ، ويستمرّ في جحودها إلى أن تأتي اللّحظة التي لا ينفع فيها النّدم .

فليجتهد الإنسان أن يعمل صالحا في دار العمل سواء ابتلي بالخير أو بالشدّة ، وليحرص على أن يتضرّع إلى الله تعالى قبل أن تنتهي لحظات القبول ، وانتهاؤها يكون بغرغرة الموت وما يأتي بعدها من أهوال .

ب) ما أقربكم ممّن أرادكم :

يالها من عبارة نابعة من قلب واع مفعم بالقرآن الكريم إذ قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ (ق ــ ١٦)

والوريد عرق في رقبة الإنسان .

نعم إنّ الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد .

متى صدرت هذه العبارة عن الإمام ؟

إنّها نصيحة أسديت لجماعة خرجوا فرارا من الطّاعون إلى العراق ، فكان الإمام يأتيهم ويقول : (ما أقربكم ممّن أرادكم) .

وفي هذا تذكير لهؤلاء النّاس للقاعدة الشّرعية في هذه الحال ، وهي أنّه إذا حلّ وباء (المرض سريع العدوى) بمكان لا يحقّ لأهله أن يغادروه ، ولا يسمح لمن هو خارج المكان أن يأتيه أو يعود إليه .

وقد رأينا كيف كان موقفه مع زوجته صلبا عندما شعر أنّ ميزان التوكّل قل اختلّ عندها .

وهو هنا يبين أنّ المرض مهما كان لا صلة له بالأجل ، فإن خرج هؤلاء النّاس خوفا من الموت فإنّ خروجهم لن يغيّر شيئا قال تعالى :

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون ــ ١١)

هكذا أصحاب العقائد الرّاسخة لا يفرّون من قضاء الله بل يقبلونه بصدر رحب محتسبين الأجر على الله تعالى .

وفعلا إنّ هذه العبارة (ما أقربكم ممّن أرادكم) تجعل الإنسان يخشى الله تعالى حقّ الخشية لأنّه منه قريب ، وعليه رقيب .

ولو أدرك النّاس معناها وعملوا بها لكانوا من الفائزين في الدّارين ، دار العمل ودار الجزاء .

ج) وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا :

إنّه أدب إسلاميّ راق في التّعايش بين النّاس ، لكن النّاس عنه يغفلون ، بل يرون أنه من الإهانة بمكان إن هم قصدوا منزلا وطلب منهم الرّجوع ، ولم يسمح لهم بالدّخول .

وذلك لأنّ النّاس قد غفلوا عن أنّ القرآن الكريم الذي لم يفرّط الله فيه من شيء هو الذّي يأمر النّاس بأن يتأدّبوا فيما بينهم بمثل هذا الأدب .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ
وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧
فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن
قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ
فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩ (النور)

إنّها آداب الاستئذان ، قد جاءت مفصّلة في هذا النصّ

القرآني ، وهي تثبت أنّه لا حرج على صاحب البيت أن يطالب من يستأذنه بالرّجوع .

وهذا الإمام جابر بن زيد يستأذنه أحد الوافدين فيقول له : (ارجع) فلمّا ذهب قال : (ردّوه فردّوه) . فقال : (أراك وجدتّ في نفسك ، أمّا إنّه فأزكى لك إذ رجعت) .

إنّها تربية عمليّة ، وهي الأساس في مسالك التّعليم والتّربية ، والإمام خبير بأن العلوم النظريّة لا قيمة لها إلاّ إذا حوّلها أصحابها إلى الواقع الملموس .

وفضل الاستئذان كبير على الوافد وعلى صاحب البيت ، أمّا الوافد فيثبت أنه لا يرمي من وراء الزّيارة إلاّ الخير .

وأمّا صاحب البيت فلا يكشف سرّه إذ كثيرا ما يكون الإنسان في بيته في وضع لا يرغب أن يراه النّاس عليه .

بهذا ومثله من الآداب يدرك المسلمون أنّهم إن احتاجوا إلى بعض وسائل الحضارة من عند غيرهم فإنّهم ليسوا في حاجة إلى أن يستوردوا الأخلاق ، بل عليهم أن يعملوا بالآداب الإسلاميّة ، وأن يعملوا على نشرها في أطراف العالم لأنّها قيم ربّانيّة لا يمكن أن يتجاوزها الزّمن مهما طال .

هكذا يجب أن ندرك أنّنا إذا أمرنا بالرّجوع يجب أن نرجع دون أن يبقى في أنفسنا غضب على من أردنا زيارته مهما كان الغرض من الزّيارة .

د) تخليص المنكـوب :

اطّلع الإمام يوما فإذا برجل من الأكّارين (الحرّاثين) يبكي ويصيح ، فقال : (ويحك مالك) ؟ فقال : (إنّ فتيان دربكم هذا نزعوا منّى قنوي نخل) (والقنو : العرجون بما فيها من الرّطب) جئت بهما إلى صاحب الأرض ، فأخاف ألاّ يصدّقني) . فبعث الإمام جابر إلى رجل من أصحابه له نخل ، فأخذ قنوين فدفعها له .

إنّ هذا الأكّار منكوب بحقّ ، وإن بدا الأمر هيّنا ، ذاك أنّه خسر ما لا يقدر على تعويضه ، وذلك نتيجة عبث الصّبية ، وذاك شأن بساطة أهل الرّيف أمام عبث بعض أهل المدينة وخاصّة الأطفال منهم .

أمام هذا المشهد بما فيه من بكاء وصياح لم يكن من الإمام إلاّ أن كان في نجدة هذا الأكّاري وخلّصه من ورطته بأن أرسل من يوفّر له ما خسره .

إنّ هذا المشهد يبدو في منتهى البساطة ، وليس بغريب من الإمام ولكنّه يعبّر عن المستوى الحضاري للمدينة ولأهلها .

وهاك مشهدا آخر من قيمة إغاثة المحتاج :

كان الرّجل يدفع عربته بعناء كبير ذاك لأنّها كانت مثقلة بأنواع الثّمار التّي كان يعرضها للبيع ، وما هي إلاّ لحظة حتّى تدحرجت به ، وتمايلت ، ثمّ انقلبت ، وسقط كلّ ما عليها على الأرض وسط زحام السّيارات والحافلات والدّراجات .

ماذا حدث يا ترى ؟ ورجل غريب عن المدينة يتأمّل . توقّفت حركة المرور ، وتسابق الحاضرون لمساعدة هذا التّاجر المتجوّل ، ولم تعد الحياة إلى نصابها إلاّ وقد عاد الرّجل لدفع عربته وهو يعدّد ما عليها من أنواع الثّمار ترغيبا للنّاس في الإقبال على البضاعة .

أمام هذا المشهد لم يكن من هذا الرّجل الغريب وهو غير مسلم إلاّ أن أدرك أنّ مثل هذه الحركة العفوية في التّعاون لم تصدر عن فراغ ، فلابدّ من أن تكون عن عقيدة .

وفعلا كانت هذه الحادثة التّي لا يرى لها مثيل في البلدان التّي طمستها الحضارة المّادية الجارفة سببا في تعرّف هذا الرّجل على الإسلام ، ثم اعتناقه فيما بعد .

ما ألطف التّعاون إذا كان خالصا لله تعالى ، وخاصّة إذا كان من باب تخليص المنكوب من نكبته .

هـ) احترام حقوق الجيران :

قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (النساء ـــ ٣٦)

ويقول عليه السّلام : (ما يزال أخي جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنّه يورّثه) .

إنّ لهؤلاء الذّين ذكرتهم الآية حقوقا على الإنسان ، ومن بينهم الجيران ، ذاك أن الإنسان لا يعيش مع قرابته فحسب ، وإنّما يتعاون مع من حواليه وإن لم يكن بينه وبينهم أيّة قرابة ، ولن يكون ذلك إلاّ بالإحسان الخالص لوجه الله تعالى .

وهذا الإمام جابر يترجم هذه المعاني الإسلاميّة السّامية التي تبيّن أنّ الإنسان لا يرتفع درجة إيمانية إلاّ إذا أمن جاره بوائقه (ج بائقة : وهي الشّرّ) ، وذلك أنّه أهديت له جزور (وهي ما يصلح لأن يذبح من الإبل) فأمر أصحابه بنحرها وتوزيعها على الجيران ، فوفّى هؤلاء في نصيب الإمام جابر ، فلمّا تناوله استكثره وقال : (أكلّ جيراننا أصاب مثل هذا ؟) قالوا : (لا) . قال : (واسوأتاه ! ساووا بيننا وبين جيراننا) .

إنّ الإمام لم يقبل أن يكون نصيبه أكثر من نصيب جيرانه لأنّه أراد أن يعمّ هذا الخير أكثر ما يمكن من هؤلاء الجيران حسب متطلّبات أسرهم . واعتبر أنّ استئثاره على هؤلاء بنصيب أوفر مصيبة (واسوأتاه) يعنى أنّه سوء أنه سوء كبير يستغيث بالله أن يحفظه منه .

إنّها حركة تبدو بسيطة في ظاهرها ولكنّها عظيمة الشّأن في حقيقتها ، ذلك لأنّ النّاس اليوم قد غفلوا عن هذه المعاني خاصّة في المدن مترامية الأطراف حيث لا يفصل بين الجيران في العمارات الضّخمة سوى خشبة في بعض الأحيان لا يبلغ سمكها سوى ٥ سم . لكنّك تسأل هؤلاء النّاس عن بعضهم البعض فتعجب أنّهم لا يعرف أحدهم الآخر ، فكيف سيفكّر في مصالحه وحقوقه ؟

نعم يصعد وينزل هؤلاء الجيران في نفس المصاعد ، وغالبا في نفس الوقت ، ولكن لا يكلّم أحدهم الآخر ، ولا ينظر إليه ، إنّه فقدان الثّقة المطلق .

هذا نمط ، أمّا إذا أتيت إلى نمط آخر من الجيرة فتجد خصاما ، وبلاء ، وسرقات ، وهتكا للأعراض ، وظنونا سيّئة ، واتّهامات ، وقضايا في المحاكم ، وما إلى ذلك ممّا يحوّل الحياة إلى جحيم .

إنّ هذا وذاك وغيره عرفته مجتمعات اليوم لأنّها ابتعدت عن كتاب الله الّذي يأمر بالإحسان إلى الجار وذي القربى الذي يجمع بين ثلاثة حقوق ، حقّ العقيدة ، وحقّ القرابة الدّمويّة ، وحقّ الجوار ، كما يأمر بالإحسان إلى الجار الجنب أي المحاذي في السكن وله حقّان ، حقّ الرّابطة الإيمانيّة ، وحقّ الجوار ، وإن لم يكن مسلما فله حقّ واحد يجب أن يحترم وهو حقّ الجوار ، ويتمثّل في حفظ عرضه وماله واحترام عقيدته إن كان من أهل الذّمة أي اليهود أو النّصارى ، وحتّى إن كان من أهل الشّرك إذا لم تعلن الحرب فإنّه له حقّ الجوار .

لمثل هذا وغيره أمر الإمام أن تقسم الجزور بالتّساوي ، لأنّه أراد أن تكون قسمة هذه الهديّة عادلة على جميع الجيران .

وقديما كان النّاس يحترزون في شأن هذه الحقوق ، فلا يطبخون طعاما شهيّاً تفوح رائحته دون أن يطعموا منه من قرب من الجيران قليلا أو كثيرا لأنّهم يعتبرون أنّ في انتشار تلك الرّائحة إيذاء لهؤلاء الجيران حتّى وإن لم يكونوا من أهل الخصاصة ، وأمّا إن كانوا من الفقراء المعوزين فالإيذاء أكثر ، إذ لا يصحّ للمسلم أن يشبع وجاره جائع .

نعم إنّ المجتمع الإسلاميّ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى ، والأسر

المتجاورة هي اللّبنات الأولى التّي يقوم عليها المجتمع ، فإن ترابطت فيما بينها ترابطا إيمانيّاً وثيقا فلا يمكن أن يتكوّن منها إلاّ مجتمع سليم .

فأين مجتماتنا الإسلاميّة من هذه المعاني ؟ إلاّ من رحم ربّك ممّن بقيت في قلوبهم ذرّات إيمان ، وإنّهم لقليل .

و) التّيسير على النّاس في حدود الشّريعة :

قال تعالى :

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة ــ ١٨٥)

وهكذا كان عليه السّلام يدعو إلى التّيسير وكان كلّما خيّر بين أمرين اختار أيسرها ، لأنّه يعلم أنّه ليس على المسلمين في الدّين من حرج .

وهذا واحد من مواقف الإمام جابر يثبت دعوته إلى التّيسير متى يمكن ذلك .

انطلق مؤذّن الإمام جابر يؤذّن لصلاة المغرب في شهر رمضان والطّعام جاهز في صحن المسجد على طريقة أهل عمان إلى اليوم . وهو هديّة فاخرة من أهل الإحسان .

وحالما انتهى المؤذّن من الدّعاء قال : عن جابر أنّ النّبيّ

ـ ﷺ ـ قال : (من قال حين يسمع النّداء : اللّهم ربّ هذه الدّعوة التّامة والصّلاة القائمة ، آت محمّدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذّي وعدّته . حلّت له شفاعتي يوم القيامة) .

لكنّ الإمام في هذا اليوم قال للمؤذن : (أرى أن تهبط فتأكل معهم ولا تعجّلهم الإقامة حتّى يفرغوا من طعامهم) .

لم يكن الطّعام كلّ يوم فاخرا مثلما كان عليه في تلك اللّيلة ، والإمام يعلم مدى رغبة النّاس في المبادرة إلى الطّعام ، لذلك لم يتردّد في أنّ قدّم العادة على العبادة لأنّه أدرك أنّ تأخير الطّعام الشّهيّ سيفسد على كثير من النّاس صلاتهم ، ولذلك اختار الموقف الأيسر ، والشّريعة تجيز ذلك ، والإمام بأحوال من حواليه خبير .

لكن يجب أن ننبّه إلى أمر صار شائعا بين النّاس اليوم ، وهو أنّ الدّعوة إلى التّيسير تجاوزت الحدّ المطلوب فانقلبت إلى الضدّ ، وهو التّفريط في الفرائض والوقوع في الحرام .

فترى مثلا من يجمع كلّ صلواته عند النّوم فإذا قلت له : قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء ـ ١٠٣)

قال لك بكلّ بساطة : (يا أخي الدّين يسر وليس بعسر ، وكيف يمكن لي أن أتخلّى عن عملي لأداء الصّلاة ، والعمل أيضا عبادة) .

سبحان الله إنّ هذا ليس من اليسر ، وإنّما هو تفريط يعاقب عليه الإنسان إذا التزم له في حياته .

كما ترى من لا يتورّع عن مجالسة من يتعاطون الرّبا ويشربون الخمر وهم يأتون معصيتهم ، فتذكّره بأن الإسلام حرّم ذلك ، فيقول لك : (يا أخي الدّين يسر) ، ويضيف أنّه واثق من نفسه أنّه لا يقع في الحرام .

والأمثلة على هذا كثيرة ، فلنميّز معاشر المسلمين بين الدّعوة إلى التّيسير ، وبين التّسيّب ، والفرق بين هذا وذاك كبير .

٢) الإمام جابر في خضمّ السّياسية :

لقد تداول على مدينة البصرة زمن الإمام جابر بن زيد عدد من الولاة منهم الطّيب ومنهم الجائر ، ويأتي على رأس هؤلاء الجورة الحجّاج بن يوسف الثّقفي وقد كانت للإمام معه مواقف .

وقد علمنا عند حديثنا عن الرّاحلة أنّ الإمام قد سجن ليمنع من الرّحلة إلى الحجّ بدعوى أنّ النّاس محتاجون إليه في الفتوى .

أ) الإمام يستفتى وهو في السّجن :

وفعلا طرأت قضيّة زمن الحجّاج والإمام جابر في السّجن ، وهي كيف يورث الخنثى (وهو الذي خلق له فرج الرّجل وفرج المرأة ولا يخلص لأيّهما) ، فأرسل الحجّاج من يستفتيه فقال : (تحبسوني وتستفتونني) !

وهو أمر يثير العجب حقّاً ، ولكنّه واقع ، وقد تكرّر كثيرا في سيرة العلماء الذّين لا يخافون في الله لومة لائم .

ثم بعد ذلك أفتى بأنّ الخنثى يورّث من قبل مباله أي حسب الجانب الغالب عليه ، فرج المرأة أو ذكر الرّجل ، أي إن كان أقرب إلى الرّجل فيأخذ نصيب الذّكور ، وإن كان جانب الفرج غالبا فله نصيب المرأة .

المهمّ بالنّسبة إلينا أنّ الإمام جابر وأترابه أمثال الحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم نالوا من عسف أهل الظّلم الكثير ، لكنّهم صبروا على ذلك لوجه الله ، و لم ينحرفوا عن مبادئهم خشية الحديد والنّار .

ب) مواقف الإمام مع الحجّاج بن يوسف :

استكتب الحجّاج يزيد بن أبي مسلم وكان من أصدقاء الإمام جابر المخلصين ولعلّه كان من أنصاره في الدّعوة إلى الله

تعالى ، لذلك خفّف هذا الرّجل كثيرا من الشرّ على الإمام جابر ، لكن كما رأينا لم يسلم من السّجن رغم ذلك .

ــ الإمام يرفض أن يكون قاضيا للحجّاج بن يوسف :

(القضاة ثلاثة : قاض في الجنّة ، وقاضيان في النّار ، قاض عمل بالحقّ في قضائه فهو في الجنّة ، وقاض علم الحقّ فجار متعمّدا فذلك في النّار ، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم في النّار) . هكذا يقول رسول الله ــ ﷺ ــ .

كما قال عليه السّلام : (فمن اجتهد وأصاب فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد) .

فالقضاء فضله كثير على من تمكّن من العدل ، وشرّه كبير على من يتعمّد الظّلم ، أمّا المخطىء فله أجر اجتهاده ولا وزر عليه ، والأساس في الإخلاص لله تعالى .

وإنّنا لنعلم أنّ الإمام كان جريئا في الإفتاء لكنّه كان يفرّ من القضاء فرارا لأنّه يعلم صعوبة التّوفيق بين رغبات الولاة الذّين يعلم جوهرهم وبين العدل المشروع .

وهذا واحد من أصدقائه يعلمه بأنّه على وشك أن يُعيّن قاضيا فقال له الإمام : (لو ابتليت بشيء من ذلك لركبت راحلتي وهربت) .

وها هو يبتلى مثل صاحبه ولكنّه يتخلّص بأعجوبة من رغبة الحجّاج في ذلك .

أدخل يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجّاج وصديق الإمام جابر على الحجّاج فكان يسائله أن قال له : (أتقرأ ؟) قال : (نعم) ، قال : (أتفرض) «تقسم التّركات» ؟ قال (نعم) فعجب الحجّاج ثمّ قال : (ما ينبغي أن نؤثر بك أحدا بل نجعلك قاضيا بين المسلمين) فقال جابر : (إنّي أضعف من ذلك) قال : (ومبلغ ضعفك؟) قال جابر : (يقع بين المرأة وخادمها شرّ فلا أحسن أن أصلح بينهما) قال : (إنّ هذا لهو الضعف) .

حادثة طريفة إذ لا شكّ أنّ الحجّاج يسمع عن الإمام جابر بن زيد ، فهو عندما سأله : أتقرأ ؟ أتفرض ؟ إنّما سأله من باب الملاطفة لاستهوائه ، لذلك نرى أنّه بسرعة تحوّل إلى عرض المنصب الذي يحتاج صاحبه إلى علم غزير لا يمكن أن يتجلّى للحجّاج من خلال الإجابة عن سؤاليه ، وهما أنّ الإمام يقرأ ويفرض ، لكن هل يكفي القاضي أن يكون عارفا للقراءة وقادرا على قسمة المواريث فقط ؟ فالحجّاج وله من الفقه ماله لم يكن ممتحنا للإمام في علمه ، وإنّما كان يمتحنه في قبول

الخطّة أو رفضها ، وهنا بالاعتماد على الأسلوب المرن الأمر الّذي لم يكن من طبيعة الحجّاج ، ولكنّ حديث كاتبه عن الرّجل من قبل حوّل الحدّة المباشرة إلى حدّة غير مباشرة تعتمد على دفع الرّجل إلى قبول العرض ، فقد بدا الحجّاج غير الرّجل الّذي يعرفه النّاس .

لكنّ الإمام تذكّر قوله : (لو ابتليت بشيء من ذلك ركبت راحلتي وهربت) ، وها هو الآن يبتلى ، فما الحيلة إذن ؟

إنّ المكر لا يردّه إلا المكر بذكاء ، لذلك فهو لم يشعر بالاحتقار عندما سأله الحجّاج سؤالين يريد من ورائهما إثارته ، فلم يثر ، وإنّما أجاب على قدر السّؤال ، فأدرك هناك الحجّاج أن صاحبه غير مغفّل لأنّه لم ينطلق في تعديد معارفه ومحاسنه وذاك شأن الرّاغبين في الخطّة فتحوّل مباشرة إلى عرض خطّة القضاء .

وجاء هذا العرض في قالب منمّق أيضا إذ يعبّر الحجّاج عن مدى حبّه للإمام ، فهو يرغب في ألاّ يؤثر عليه أحد .

لكن الإمام لم يجرفه الهوى ، بل ظلّ صامدا بمرونة منقطعة النّظير ، فقال معبّرا عن ضعفه : (يقع بين المرأة وخادمها شرّ فلا أحسن أن أصلح بينهما) .

وينتهي المشهد بأنّ يقرّ الحجّاج أنّ هذا لهو الضّعف .

فالمحاورة لطيفة ، بل في منتهى اللّطف ، تدلّ على أن كلاّ من الطّرفين فهم حقيقة صاحبه ومرّ الأمر بسلام ، فالحجّاج أراد أن يورّط الإمام جابر ، لكنّ الرّجل لم يتورّط ، وسلمّه الله تعالى من بلاء مبين : إنّه القضاء لرجل مضرب المثال في الجور والطّغيان .

ومن أراد أن يعرف حقيقة القضاء ، ومزيّة القاضي العادل فليقرأ هذه الرّسالة التّي بعث بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري عندما ولاّه قضاء مدينة الكوفة .

(أمّا بعد فإنّ القضاء فريضة محكمة وسنّة متّبعة ، فافهم إذا أدّي إليك فإنّه لا ينفع تكلّم بحقّ لا نفاذ له ، وآس بين النّاس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر ، والصّلح جائز بين المسلمين إلاّ صلحا أحلّ حراما أو حرّم حلالا .

ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحقّ ، فإنّ الحقّ قديم ومراجعة الحقّ خير من التّمادي في الباطل .

الفهم فيما تلجلج في صدرك ممّا ليس في كتاب ولا سنّة ، ثمّ اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها .

واجعل لمن ادّعى حقّا غائبا أو بيّنة أمدا ينتهي إليه ، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقّه وإلاّ استحللت القضيّة عليه ، فإنّ ذلك أنفى للشكّ وأجلى للعماء .

والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلاّ مجلودا في حدّ ، أو مُجربّا عليه شهادة زور ، أو ظنينا في نسب أو ولاء ، فإنّ الله سبحانه عفا عن الإيمان ودرأ بالبيّنات .

وإيّاك والقلق والضّجر والتأفّف بالخصوم ، فإنّ استقرار الحقّ في مواطن الحقّ يعظم الله به الأجر ويحسن به الذّكر . والسّلام) .

هذا هو القضاء الحقّ : فهم ، وتثبّت ، وتحرّ للحقيقة ، ثمّ مضاء بثبات دون أيّ حيف مهما كانت المغريات ومهما كان التّهديد ، ويعلم الإمام جابر أنّ مثل هذا صار من عداد المستحيل ، فالفرار انسب وذاك ما كان .

ـ جرأة الإمام على الحجّاج :

إنّ كلاً من الرّجلين يعرف حقيقة الآخر ، وإن سكت الحجّاج عن الإمام عندما امتنع عن القضاء وقبل منه ذلك فإنّه ما يزال يدعوه إلى مجالسه ويعمل على إثارته .

ـ من ذلك أنّ الحجاج كان يكتب ، والإمام جابر بين يديه فسقط القلم من يد الحجّاج فقال للإمام جابر : (ناولني القلم) .

فقال له الإمام جابر : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لعن الله الظّالمين وأعوانهم وأعوان أعوانهم ولو بمدّه قلما) .

ـ ومن ذلك أيضا أنّ الحجّاج في مجلس من المجالس .
قال : (يا أبا الشّعثاء أخبرني عن أوّل آية من سورة البقرة) ؟
قال : (تلك للمؤمنين) . قال : والثّانية ؟ قال : (تلك للكافرين) . قال : والثّالثة ؟ قال : (فيك وفي أصحابك) .

هذا هو الحجّاج ظلم ونفاق ، وصمتان يتقبّلهما من الإمام جابر وهما غير خفيّتين عنده .

أمّا الحادثة الأولى فقد عمد فيها الحجّاج إلى المكر ، فلا شكّ أنّه تعمّد إسقاط القلم ليتبيّن تصرّف الإمام إزاء طلب مناولته إيّاه ، فكان الرّفض وكانت الصرّاحة ، فأدرك الحجّاج أنّ الإمام من طينة خاصّة طيّبة ، وليس من طينة المائعين الذّين يرغبون في إظهار التّقرّب في مثل هذه المواقف تعبيرا عن الولاء لقضاء الحاجة .

فالإمام لم يكتف في هذه المرّة بمجرّد الرّفض وإنّما استحضر

حديثا جاء ضربة في الصّميم للحجّاج ، إذ الإمام لا يريد أن يدخل في لعنة الله بأيّ وجه من الوجوه ، بل بأخسّ الوجوه وأدناها وهو الانبطاح إلى الظّلم وقضاء ما يريد الظّالم ، وفعلا خلّصه الله تعالى من التّسفّل الذّي أراد الحجّاج أن يورّطه فيه ، وبرّأه من أن يكون ملعونا .

بينما عمد الحجّاج في الحادثة الثّانية إلى السّؤال المباشر ، وبدا مستفسرا عن معاني مطالع سورة البقرة كأنّه لا يعرفها من قبل .

لكنّ الإمام جابر لم يتردّد في قول الحقّ بعبارة صريحة عنيفة لا التواء فيها وكان يمكن أن يكتفي بالجواب الأيسر ،وهو أن يحدّد أن المجموعة الثّالثة من الآيات في سورة البقرة جاءت في المنافقين ، ولكنّه اختار أن يحشر الحجّاج في هؤلاء والخطاب المباشر جاء في منتهى البلاغة (**فيك وفي أصحابك**) بصيغة المفرد المخاطب (فيك وفي أصحابك) ، فكأنّ آيات النّفاق تنزّلت في حقّ الحجّاج وأعوانه ، بينما نعرف أنّها نزلت في حقّ المنافقين الذين يخفون الكفر ويظهرون الإيمان ، وهذا الصّنف لا يخلو منهم زمان ، وهو الصّنف الذّي يثبت الرّسول عليه السّلام أنّه لا يطمئنّ علينا من شرّه لأنّ المؤمن يحفظه التّوحيد ، والكافر

يردّه كفره ، بقي المنافق فهو شرّ كلّه لأنّه ذو وجهين ، ومن كان هكذا ، أي ذا وجهين ، فلن يكون عند الله وجيها .

جابر بن زيد قال بلغني عن أبي عبيدة بن الجرّاح عن النّبيّ ـ ﷺ ـ أنّه قال : (ما أخاف عليكم بعدي مؤمنا ولا كافرا ، أمّا المؤمن فَيحْبسُه إيمانه ، وأمّا الكافر فقد أذلّه الله بكفره ، ولكن أخاف عليكم منافقا عالم اللّسان جاهل القلب يتكلّم ما تعرفون ويفعل ما تنكرون) .

ويخلص الإمام من شرّ الحجّاج ، وتبقى العلاقة بينهما مرضيّة إلى أن يقرّر الحجّاج سجن الإمام حيث ذكرنا أنّه يستفتيه وهو يقول (تحبسونني وتستفتونني) .

ثمّ عندما تحوّلت الأحوال قرّر الحجّاج نفي الإمام إلى عُمان ، وفعلا بقي هنالك مدّة من الزّمن آتت أكلها بعد حين ، ثم رجع إلى البصرة حيث وافاه الأجل المحتوم رحمه الله .

٣) رأي الإمام جابر في القدر :

الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه ركن من أركان العقيدة الإسلاميّة ، هكذا بيّن جبريل عليه السّلام في محاورته اللّطيفة مع الرّسول ـ ﷺ ـ كما جاء في الحديث الشّريف .

وهذا الحجّاج يقع في نفسه شيء من القدر فيتّجه إلى كاتبه باحثا عن الفرج فيقول يزيد بن أبي مسلم : (سأكتب لك إلى رجل بالبصرة عنده من ذلك علم) .

ثمّ كتب إلى جابر بن زيد : (أمّا بعد فإنّ الأمير وقع في نفسه شيء من أمر القدر فاكتب إليه بما تفرّج عنه . فأجاب الإمام : (قل للأمير يكثر ترديد خطبته «أي مطلع الرّسالة» فإنّ فيها بيانا لما سأل عنه) .

فأعلم الكاتب الأمير بذلك فردّدها مرارا ، كلّ ذلك لا ينتبه منها بشيء حتى إذا كان بعد ذلك انتبه .

فقال : من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له .

فقال : (يايزيد ما أعلم صاحبك) .

نعم إنّ الهداية بيد الله والضّلال بيد الله فهما من قدر الله ، ولكلّ فعل طرفان ، فهو من جهة مخلوق لله تعالى ومن جهة ثانية كسب للإنسان .

ولا سبيل للإنسان أن يدرك الجانب الغيبيّ في القدر لذلك عليه بالإيمان به ، مع إدراك أنّ هذا الإيمان هو سرّ النّجاح في الحياة .

والدّليل على ذلك أنّ أصحاب الرّسول عليه السّلام كانوا أكثر النّاس إيمانا بالقدر ، قال تعالى :

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة ــ ٥١)

فمنهم من كان يعلم مثلا أنّ الأعداء أعدّوا له السمّ في الطّعام فيذكر اسم الله ويأكل دون أن يصيبه سوء ، وكانوا يدركون أنّ النّصر بيد الله ، فيقبلون على الجهاد إقبال الرّاغب في الموت ، وهم يعلمون أنّ الأجل قدر الله ، وأنّ ضربات العدوّ لن تقدّم في الأجل ولن تؤخّر ، فيزيدهم الله بذلك نصرا على نصر .

بينما عندما تخاذل المسلمون عن هذا المعتقد أصابتهم الهزائم الواحدة بعد الأخرى إلى أن تحوّلوا من رأس القافلة إلى مؤخّرتها .

وإذا أردتّ أن تزداد يقينا في القدر فاستمع إلى هذه الحادثة : يسقط رجل من الطّابق السّادس فيقع على الأرض سليما كأن لم يقع شيء ، يحيط به النّاس فيستبشرون لنجاته ويطلبون منه الهديّة ، فيقطع الشّارع ليشتري بعض الفاكهة ، وعند عودته وهو في نشوة لا يكاد يصدّق صدمته سيّارة فأردته قتيلا .

سبحان الله : إنّه قدر الله وكفى .

٤) مذهب الإمام جابر بن زيد :

لقد كان الإمام جابر بن زيد من أعلام أهل زمانه ، وكانت له حلقة في جامع البصرة سوى الحلقات الخاصة التّي تنعقد حيثما يحلّ ، وكان النّاس يقصدونه طلبا للفتوى ، وكان لا يبخل عليهم بل يتحرّى الجواب .

وقد روى عنه العلم فيما وصلنا مدوّنا أكثر من مائة شخص سوى مالم يدوّن .

لكنّ هؤلاء الذّين أخذوا عن الإمام لم يكن أخذهم جميعا بنفس القدر ، بل تميّز من بينهم اثنان هما أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التّميمي بالولاء ، وضمام بن السّائب البصري العُماني .

إنّ كلّ ما نقله هذان العالمان مع أقرانهما عن الإمام جابر بن زيد ألمّ بجميع وجوه الشّريعة فكوّن تصوّرا كاملا لأصول الدّين ، وللفقه بجميع مناحيه ، وقد كان هؤلاء الذين جلسوا للإمام جابر لا يلجأون إلى آرائهم إلاّ إذا لم يذكر فيه رأي إمامهم .

بهذا كلّه تكوّنت مدرسة أو قل مذهبا فقهيّا متكاملا مرجعه الأساسي الإمام جابر بن زيد .

ولم ينسب هذا المذهب لدعامته الأولى ، وإنّما نسب إلى صديقه عبد الله بن إباض لأحوال سياسيّة جاء تحليلها في كلّ مصادر الفكر الإباضي .

ذاك أنّ الإمام جابر مال إلى الكتمان تخطيطا للمستقبل ، بينما تقدّم الإمام عبد الله بن إباض على الواجهة السّياسيّة ، وكانت له مواقف واضحة مع الفرق الإسلاميّة النّاشئة آنذاك ، وأهمّها لقاؤه مع مجموعة منهم في صومعة جامع البصرة ، وانفصاله عنهم لما رأى في اتّجاههم من خروج عن الشّريعة وذلك عن سنة ٦٤/٦٨٣ ، ثمّ مراسلاته مع الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مراون .

وقد كان الإمام عبد الله بن إباض يصدر جميع آرائه عن شيخه وصديقه الإمام جابر بن زيد .

فأحدهما للعلم وهو الإمام جابر ، والثّاني للسّياسة العلنيّة وهو الإمام عبد الله بن إباض ، لذلك فإنّنا لا نجد للإمام عبد الله بن إباض ، أيّ قول في الفقه ، بينما قد غطّى الإمام جابر المدرسة تغطية كاملة بما تحتاج إليه في السّياسة ، والعقيدة ، وفقه العبادات ، وفقه المعاملات وما إلى ذلك .

والملاحظ أنّ أصحاب هذه المدرسة لم يخّيروا الانتساب إلى الرّجال وإنّما اختاروا لأنفسهم تسميتين :

أهل الدّعوة ــ جماعة المسلمين ، لكن لمّا تميّز الأمر بعد حين بين الفرق والمذاهب أطلق عليهم معاصروهم تسمية الإباضيّة نسبة إلى إمامهم عبد الله بن إباض فلم يرفضوا ذلك .

وأنت إذا تأمّلت في جميع كتب الإباضية تجد أنّها أكثر الكتب نقلا عن الإمام جابر بن زيد ، وإن كانت كتب المذاهب الأخرى لم تستغن عن الإمام جابر لأنّ كثيرا من شيوخها أخذوا عن الإمام جابر الذّي كان يعمل على الواجهتين على الواجهة العلنيّة في جامع البصرة ، وعلى الواجهة السرّيّة مع الجيل الذّي نشأ معه ممّن تعدّدت أجناسهم ، واتّفق اتّجاههم الفكريّ ، وكان الإمام ينتخبهم انتخابا لما يجد فيهم من أهليّة لاستيعاب ما يعلّمهم إيّاه من حركيّة دقيقة ترمي إلى الإطاحة بالظّلم والظّالمين بطريقة حكيمة .

فالإمام جابر بن زيد هو أساس المذهب الإباضي ودعامته ، وهو كما تشهد له أقواله عالم يتقيّد بالأثر دون أن يغفل عن الرّأي .

وكذا جاءت المدرسة الإباضية وسطا بين النّقل والعقل ، تعطي لكلّ طرف حقّه ، فإن وجد النّقل فلا اجتهاد مع النّص ، وإن لم يوجد فباب الاجتهاد مفتوح ، فإمّا القياس وإمّا الإجماع .

الفصل الرابع

من رسائل الإمام جابر بن زيد وآرائه وفتاواه

من رسائل الإمام جابر بن زيد وآرائه وفتاواه

١) الموعظة الحسنة في بعض رسائل الإمام جابر بن زيد :

أ) التّقوى :

يقول تعالى :

﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف ــ ٢٦)

فحسب الإمام جابر هذا اللّباس يرفع درجة صاحبه إلى أعلى الدّرجات عند الله فيقول : (فإنّ أهل التّقوى نزلوا من الله منزلة لم ينزلها أحد من خلقه ، حتى ألطفهم المودّة ، وصافاهم في النّصيحة ، واصطفاهم بالكرامة ، فما ينتهي بهم المنزل حتّى أعطاهم الحبّ منه ، فبلغ حبّه لهم أن أبغض من أبغضهم ...

واعلم أنّه يبلغ من كرامة المتّقين على الله أن أحبّ من أحبّهم ، ووالى من والاهم ، وأكرم من أكرمهم حتّى صنع بهم في الأمور كلّها خيرته لهم في بلاء ابتلاهم به من قوت رزق ، أو ضرر في قسم ، أو كرب كربهم ، وإنّما يصنع ذإلك لخير يريده بهم) .

والتّقوى حسب الإمام لا تستحقّ بمجرّد القول ، بل لابدّ

من أن تردف بالعمل : (فإن استطعت أن تستحقّ التّقوى بقولك وعملك فافعل) .

ب) تعظيم الله تعالى وحسن الظّنّ به والإخلاص له :

ولا تقوى إلاّ بتعظيم الله تعالى ، وحسن الظّنّ به مهما كانت المحن ، والإخلاص له في السّرّ والعلانيّة .

بمثل هذه المعاني يوصي أتباعه : (وأوصيك بتقوى الله الربّ العظيم الذّي يعلم منك ما تجهل من نفسك ، والذّي اطّلع على ما يضمر قلبك ، وما تختان عينك ، وما تبدي أو تخفي في نفسك ، وهو أقرب إليك من حبل الوريد ، فانظر إلى هذا الرّبّ الذّي نزل منك هذه المنزلة ، فكن منه أشدّ مخافة ، وله أشدّ اتّقاء من غيره) .

ومن هذه الوصايا أيضا : (وأوصيك بتقوى الله ، والتّوكّل عليه ، والتّفويض إليه ، وحسن الظّنّ به ، فإنّ الله نازل من النّاس على ظنّهم به ، فالظّانوّن به ظنّ السّوء عليهم دائرة السّوء ، فاحذر أن يرديك ظنّك بالله ، واعلم أنّ العباد من ذلك أمور شتّى ونيات مختلفة ، فان استطعت ألاّ تقيم ساعة من نهار وليل على أمر تعرف أنّه لله سخط فافعل) .

ج) لا قيمة للقول بدون عمل :

الإيمان عقيدة في الجنان ، وقول باللّسان ، وعمل بالأركان ، ومبدأ ثبت عليه الإباضية عبر الزّمان والمكان ، نابع من رسول الله ــ ﷺ ــ ، ومن إمامهم جابر بن زيد .

إنّ الإمام يدرك غاية الإدراك أنّ تحمّل المسؤولية لا يتمّ إلاّ إذا وافق العمل القول والاعتقاد ، فهو يقول مبيّنا مغبّة تغليب القول على العمل : (وإن نقص العمل القول كان ذلك غاية الفساد) .

كما يلحّ على الالتزام بالعمل الصّالح قدر المستطاع : (فإذا جاءك كتابي فليعنيك ما افترض الله عليك من سمعك وبصرك وقلبك وسائر جوارحك ، ولا يتوانى عمّا لابد لك منه .. فإن استطعت أن تشهد مع علم جوارحك ، حفظة الأرض ما تحمد غبّ أمرك فافعل) .

د) كيف يفصل الخصام :

إنّ الإمام حريص على ألاّ يدبّ الخصام بين أفراد الجماعة التّي حرص على تكوينها ، وهو ما ينصح بعض دعاته بمنهج طريف لفصل الخصام إن قدّر أن يقع : (فإذا جاءك كتابي فكن قاضيا على نفسك ، واجتمع أنت وخصمك عند كتاب الله ،

ثمّ ليقص كلّ واحد منكما قصّته على كتاب الله فإن جمع أمركما فدوما على ذلك ، وإن فرّق بينكما فليأت أحدكما صاحبه ، ولا تشقيا ، وليعترف أحدكما لصاحبه ، فإنّ التّنازع والتّشاجر هلاك لأمركما) .

إنّ هذه المقتطفات من رسائل الإمام إلى الدّعاة ناطقة بنفسها لا تحتاج إلى كبير تعليق ، إنّها الدّعوة إلى الإيمان الخالص الذي يقوم على تعظيم الله عزّ وجلّ ، والإخلاص له ، وحسن الظّنّ به ، فيتجلّى أثر ذلك في القول والعمل ، وفي الرّخاء وفي الشدّة ، ذلك فضل الله على المتّقين

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات ١٣)

٢) نماذج من آراء الإمام :

أ) كتابة المصحف بالأجر :

اختلف السّلف في هذه المسألة ، فذهب الإمام جابر بن زيد إلى أنّ ذلك جائز ، وإلى أنّه من الكسب الحلال ، نقل ذلك أبو داود السّجستاني عن مالك بن دينار قال : (دخل عليّ جابر بن زيد وأنا أكتب مصحفا) فقلت له : (كيف ترى صنعتي هذه يا أبا الشّعثاء ؟) فقال : (نعم الصّنعة صنعتك ، ما أحسن هذا ، تنقل كتاب الله من ورقة

إلى ورقة ، وآية إلى آية ، وكلمة إلى كلمة ، هذا الحلال لا بأس به) . وفي رواية : (نعمت الصّنعة صنعتك فالزمها) .

ب) قراءة الإمام لقوله تعالى :

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ (التكوير ــ ٨)

قرأ جابر بن زيد : (وإذا الموءودة سَأَلَتْ) رواه عنه القرطبي من طريق أبي الضّحى وقال : (الجارية تتعلّق يوم القيامة بأبيها فتقول : بأيّ ذنب قتلتني ؟ فلا يكون له عذر .

وهي قراءة ابن عباس .

وقرأ الباقون (سُئِلَت) .

ج) حكم من أكل أو شرب في رمضان ناسيا :

روى عن الإمام جابر بن زيد أنّه قال : (لا شيء عليه) أي لا قضاء ولا كفّارة فقد أورد أبو غانم عن عبد الله بن عبد العزيز) قال : (سألت أبا عبيدة عن رجل أكل وشرب وجامع ناسيا في رمضان) فقال : سألت أبا الشّعثاء عن ذلك فقال : (لا قضاء عليه) .

وفي رواية أخرى : قال أبو المؤرج عن أبي عبيدة عن عمارة ، وكان عمارة خادم جابر بن زيد ، وقد غاب بخرسان سنين . قال : (قدمت على أبي الشّعثاء فأمرني أن أرقى له نخلة

في داره لأخترف رطبا منها ، وكنت صائما فمازلت آكل منها ، وأخترف ، فذكرت أنّي صائم فاسترجعت) ، فقال لي أبو الشّعثاء : (ما شأنك) ؟ فقلت : (إنّي كنت صائما ونسيت فأكلت ما دمت أخترف) فقال لي : (الله أطعمك وسقاك ، أتمّ صومك ولا قضاء عليك) .

واستدلّ الإمام ومن قال بقوله بما روي عن أبي هريرة أنّه قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : (من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتمّ صومه ، فإنّما الله أطعمه وسقاه) .

ويستدلّ كذلك بحديث أم إسحاق أنّها كانت عند رسول الله ــ ﷺ ــ فأتي بقطعة من ثريد فأكلت معه ، ثمّ تذكّرت أنّها صائمة فقال لها ذو اليدين : (الآن بعد ما شبعت) ؟ فقال لها رسول الله ــ ﷺ ــ : (أتمّي صومك ، فإنّما هو رزق ساقه الله إليك) .

د) نكاح الزّاني والزّانية :

● وسئل جابر عن رجل زنا بامرأة ، ثمّ تاب وأصلح وظهر ذلك منه ، أو امرأة زنت ثم تابت وأصلحت وظهر ذلك منها ، هل ترى لهما أن يتناكحا ؟

قال : (لا) .

قلت : (إنّه لم يزن بها) .

قال : (وإن لم يزن بها) .

● وسئل عن رجل زنى بامرأة ، وهما مشركان ، ثمّ أسلما بعد ذلك ، أله أن يتزوّجها ؟

قال : ذلك قول ابن عبّاس ، أوّله سفاح وآخره نكاح ، فلا بأس .

وسئل عن امرأة مسلمة رأت رجلا يزني ، هل يحلّ لها أن تتزوّجه ؟

قال : (لا) .

قلت : (أفحرام عليها) .

قال : ذلك قال الله تعالى :

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور — ٣)

● وسئل عن رجل تزوّج امرأة ، ولها ابنة فمسّ فرجها بيده وهو يريد أن يفسق بها ؟

قال : (حرمت عليه امرأته) .

(وسئل عن صبيين كانا يلعبان فمسّ ذكر الصبّي فرج الصّبيّة فأرادا نكاحها بعد ما بلغا) ؟

قال : (لا بأس بذلك مالم يخالطها) .

هـ) في الطّب والعلاج :

الرّبيع ، عن ضمام ، عن أبي الشّعثاء قال : (إذا ابتليت المرأة بكسر فخذها أو رجلها يستر كلّ شيء منها إلاّ ذلك الموضع ، ويحضرها وليّها) .

عمرو بن هرم قال : (سئل جابر بن زيد ، هل يصلح لرجل أن يتدلك بدردي الخمر ، أو يتداوى منه بشيء في جراحه أو سواها) ؟

قال : (لا هو رجس أمر الله باجتنابه) .

قيل له : (فهل تمتشط به المرأة) ؟

قال : (لا يحلّ ذلك) .

عمر بن هرم ، عن عكرمة قال : إنّ ابن عبّاس قال : (إنّ أبا هريرة سئل عن ذلك) فقيل له : (إنّ النساء تمتشطن به) . فقال : (مزّق الله رؤوسهنّ ، وأتفل ريحهنّ ، فإن ما كان حراما لا يصلح لرأس ، ولا شفاء بما حرم الله ، ولكنّه إثم وسقم) .

وفاة الإمام جابر بن زيد

عبر من مشهد الاحتضار :

ولمّا حضرت الإمام جابر بن زيد الوفاة أتاه ثابت البناني .

وقال : (يا أبا الشّعثاء ، هل تشتهي شيئا) ؟

قال : (إنّي لا أشتهي إلاّ أن ألقى الحسن البصري قبل أن أموت) .[1]

فخرج ثابت البناني ، فدخل على الحسن فأعلمه بقول جابر بن زيد ، وكان الحسن إذ ذّاك مستخفيا (من ظلم الحجّاج) .

قال الحسن : (كيف لي بذلك) ؟

قال ثابت : (اركب بغلتي على السرّج وأنا أردف خلفك ، وأعطيك طيلساني ، وأرجو ألاّ يعرض لنا) .

فتمّ ذلك ودخل الحسن على أبي الشّعثاء وهو مضطجع ، فانكبّ عليه الحسن .

قال : (يا أبا الشّعثاء ، قل لا إله إلاّ الله) .

فرفع جابر عينه فقال : (أعوذ بالله من غدوّ ورواح إلى النّار) .

---

١) لقائل أن يقول : لِمَ لَمْ يستدع أبا عبيدة وضمام أقرب النّاس إليه . فالجواب : إنّهما في سجن الحجّاج .

فقال له الحسن : (يا أبا الشّعثاء ، قل لا إله إلاّ الله) .
فقال جابر : (أعوذ بالله من غدوّ ورواح إلى النّار) .

ثمّ يقول : يا أبا سعيد :
﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام ــ ١٥٨) .

قال الحسن : (هذا والله الفقيه العالم) .
ثمّ قال جابر : (يا أبا سعيد حدّثني بحديث ترويه عن رسول الله ــ ﷺ ــ في المؤمن إذا حضرته الوفاة) .

قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : (إنّ المؤمن إذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا) .

قال الإمام جابر : الله أكبر ، والله إنّي لأجد بردا على كبدي) .
إنّها لحظات الاحتضار ، وهي أصعب لحظات الحياة ، لأنّها اللّحظات الّتي يتحوّل فيها الإنسان من دار الدّنيا ، دار العمل إلى الدّار الآخرة ، دار الجزاء .

فيا سعد من ثبّته الله في هذه اللّحظات ، وأرسل على لسانه كلمة التّوحيد طلقة صافية مشعّة .

قال تعالى :
﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (النحل)

وقيل نظر النبيّ ــ ﷺ ــ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له : (يا ملك الموت ، ارفق بصاحبي ، فإنّه مؤمن . فقال له ملك الموت : (طب نفسا ، وقرّ عينا) ، وروي عن ابن مسعود ومثله عن البراء بن عازب أنه قال : (إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن) قال له : (ربّك يقرئك السّلام) .

وقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ (الفجر)

هذه هي النّسمات التي يرفل بها هذا المشهد الذّي يرويه ثابت البناني ، وهو شاهد عيان للّحظات التي كان الإمام جابر بن زيد يودّع فيها الدّنيا غير مأسوف عليها ، لأنّها كانت مطيّة للآخرة بحقّ .

وفي هذا المشهد من العبر الكثير نذكر منها :

١ ــ من جهة الإمام جابر بن زيد :

لقد كان رحمة الله في غاية الثّبات في هذه اللّحظات الأخيرة من حياته ، فبينما كان صديقه الحسن البصري يحرص على تلقينه

كلمة التّوحيد كان الإمام في غاية الوعي ، ذلك أنّ الآية التي أجاب بها صديقه تبيّن أنّ كلمة التّوحيد لا يمكن أن تنفع الإنسان إلاّ إذا ترجم عنها المسلم بالقول والعمل قبل أن يغلق باب التّوبة .

ومعلوم أنّ هذا الباب يغلق عند الغرغرة ، وفي هذا تنبيه من الإمام إلى أنّ العمل يجب أن يكون في الرّخاء ، والله تعالى يعطي الإنسان مهلة من لحظة بلوغه إلى قبيل لحظة الغرغرة .

فياويح من فرّط في هذه المهلة التّي يتمكّن فيها الإنسان من الاختيار بين العمل الصّالح وبين عكسه ، والله تعالى لا يفضحه حتّى وإن ارتكب من الأعمال أسوأها ، وليتصوّر الإنسان أن الله تعالى يأخذه حال وقوعه في المعصية ، أو يضع على جبينه مثلا علامة كلّما عصى ، ثمّ تنضاف إليها أخرى عند ارتكاب ثانية وهكذا .

سبحان الله إنّه رحيم بعباده ، يستر عليهم ويمهلهم ، وينذرهم بأنّ هذه المهلة تنتهي ، ونهايتها تكون بالغرغرة ، أو بظهور بعض علامات السّاعة كطلوع الشّمس من المغرب عوض طلوعها من المشرق .

فالإمام رحمة الله عليه ظلّ طول حياته يعلّم النّاس هذا

المبدأ ، وهو أن الإيمان عقيدة في الجنان ، وقول باللّسان ، وعمل بالأركان يعني بالجوارح ، وها هو يذكّر نفسه ، ويذكّر من حضر ، بهذه الحقيقة في هذه اللّحظة الحاسمة .

ثمّ يعد هذه الآية التي تلاها رجا من الحسن البصري أن يذكّره بحديث عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ في شأن المؤمن عندما يحضره ملك الموت .

لماذا يا ترى ؟

إنّه يريد أن يزداد طمأنينة أنّه يموت ميتة الصّالحين وذلك بعلامة بيّنة .

وأدرك صديقه طلبه فاختار له من بين العديد من الأحاديث في هذا الشّأن ذلكم الحديث الذي ناسب المقام ، ونزل على الإمام بردا وسلاما .

ما هي العلامة ؟

أن يجد بردا على كبده .

وفعلا يلبّي الإمام نداء ربّه العظيم ، وهو يجد بردا على كبده وهو في غاية الانشراح للقاء ربّه ، ذلك لأنّه استعدّ طول حياته لهذه اللّحظة بما وفّقه الله إليه من كسب الأعمال الصّالحة .

وهكذا رجعت نفسه المطمئنّة راضية مرضيّة لتدخل في عباد الله ، ولتدخل في جنّة الله .

٢ ــ من جهة الإمام الحسن البصريّ :

إنّ هذا الرّجل الذّي شهد له هو الآخر النّاس بالصّلاح ، ذاك أنّ المذاهب الإسلاميّة تعتبره أصلا لها ، لم يتردّد عن تلبية طلب صديقه وأخيه في الله رغم صعوبة الظّرف ، ذاك أنّه كان مختفيا من ظلم الحجّاج وأعوانه ، بل خرج إليه متنكّرا حالما وصله رسول الإمام جابر بن زيد .

نعم إنّها المحبّة الخالصة بين العلماء المخلصين لله عزّ وجلّ ، فكلّ خطر يهون ولو كان السّجن بما وراءه من فقدان نعمة الحريّة .

وحالما مثل بين يديه أدرك ممّا رأى أنّ الإمام جابر يحتضر ، لذلك سارع بتلقينه كلمة التّوحيد كما هي السّنة النبويّة الشّريفة .

إلاّ أنّ الإمام أثبت لصديقه أنّه لم تكن لتغيب عنه هذه الكلمة بل استحضر بين يديه من القرآن الكريم ما يقوم دليلا على صلاحه كما ذكرنا .

وهذا ما يرجوه كلّ من يدرك أحد خلاّنه في لحظات الاحتضار .

لذلك لم يكن من الحسن البصري إلاّ أن أقرّ إقرارا كاملا

أنّ الإمام جابر هو الفقيه العالم ، وأقسم على ذلك وقد بيّنّا قيمة هذه الشّهادة فيما مضى .

ثمّ حالما طالبه صديقه بأن يستحضر بين يديه حديثا للرّسول ــ ﷺ ــ ساق له قولا يناسب المقام ، وكيف لا يوفّق إلى حسن الاختيار وهو الرّجل الذي تهتزّ جنبات جامع البصرة لوقع مواعظه النّيّرة .

نعم لقد نزل هذا الحديث بردا وسلاما على الإمام ، فلاقى ربّه وهو يكبّره ، ويوّحده ، وفارق أصحابه وهم يرجون أن يرزقهم الله من الثّبات ما رزقه .

٣ ــ حسن العلاقة بين هذين العالمين الكريمين :

إنّ في هذه العلاقة الإيمانيّة الطّيبة دروسا لأتباعهما عبر الزّمن .

نعم لقد غفل الأتباع عن هذه المعاني السّامية ، وقامت العداوة بين المذاهب الإسلاميّة حتّى وصلت إلى درجة التّكفير في كثير من الأحيان .

فما لنا لا نقتدي بعلمائنا الصّالحين الذّين أخذوا من المنبع الصّافي فنتآلف ، ونتآخى ، ونعمل فيما اتّفقنا فيه ونعذر بعضنا البعض فيما اختلفنا فيه .

ألم يختلف الإمامان في بعض الآراء في حياتهما ؟ لا شكّ أنّ ذلك وقع ، ولكنّه الاجتهاد المخلص الذّي يدلّ هذا المشهد على أنّه لم يورّث أحقادا .

ألم يأن للمسلمين اليوم أن يتآلفوا بينهم ، وأن يطووا ما خلّفته عصور الغفلة من مصائب ، ليتمكّنوا من مصارعة الخطر الدّاهم ، ألا وهو الخطر الذّي يعمل جاهدا على نسف الإسلام ، وإذا نسف الإسلام لا قدّر الله فماذا يبقى للمسلمين ؟

إنّنا على يقين أنّ أيّة قوّة في العالم لن تستطيع أن تنسف إسلامنا ، ذاك أنّ الله تعالى كتب على نفسه أن يحفظ كتابه :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ــ ٩)

إلى أن تقوم السّاعة .

فإلى العمل يا أهل الإسلام .

متى كانت هذه الوفاة ؟ وأين ؟

أرجح الأقوال أنّها كانت سنة ٩٣هـ/٧١١م في مدينة البصرة .

الخاتمة

نيّف وسبعون سنة في خير القرون بين عُمان والبصرة ومكّة المكّرمة والمدينة المنوّرة ، تلك هي حياة الإمام جابر بن زيد .

ينبت في عُمان ، وسرعان ما يستقرّ به القرار في حاضرة من حواضر العالم الإسلامي آنذاك .

إنّها مدينة البصرة ، ملتقى الحضارات ، ومقصد العلماء والمتعلّمين .

ملتقى الحضارات لما عرفته من نشأتها ــ ولم تولد هي الأخرى إلاّ قبل ولادة الإمام بنصف عقد من الزّمن ــ من تعدّد الأجناس فيها من عرب وفرس وهنود وصينيين وروم ، ذاك أنّها قابعة جنوب بلاد العراق ، عند مصبّ دجلة والفرات وشمال الخليج العربي .

ومقصد العلماء والمتعلّمين ، ولم لا ؟ ما دامت قد شدّت إليها خمسين ومائة من أصحاب المصطفى ــ ﷺ ــ ، ونشأ فيها مئات من التّابعين ، كلّهم يقرؤون جميع فنون الشّريعة لمن يرغب في التعلّم إخلاصا لله تعالى .

وقد شهد للإمام جابر شيوخه من صحابة رسول الله ــ ﷺ ــ وأصدقاؤه من التّابعين رضوان الله عليهم بما هو

له أهل من النّبوغ في العلم ، والصّلاح في العمل ، إنّه عالم البصرة ومفتيها ، بل هو عالم العرب بل هو أعلم من على وجه الأرض .

وقد شهد هو نفسه لنفسه حيث أثبت ، شكرا لله تعالى لا رياء ولا تفاخر ، أنّه أدرك سبعين بدريّاً حوى ما عندهم وما عند بقيّة من عرف من الصّحابة سوى البحر .

ولم لا ؟ ذاك فضل الله يؤتيه من يشاء

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة ــ ٢٦٩)

إنّه نسخة تكاد تكون طبق الأصل لبحر الأمّة وحبرها عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه .

لم يكن همّه في مدينة البصرة أن يجمع المال ، وأن يعمر القصور ، ولكن كان همّه من الدّنيا : امرأة صالحة يأوي إليها لتحفظ دينه ، وراحلة صالحة تبلّغ الأماكن التي لا تبلغ إلاّ بشقّ الأنفس ، رزق حلال فيه الكفاف . ولقد منّ الله عليه بما طلب .

لذلك كان يشدّ الرّحال كلّ سنة إلى الحرمين الشّريفين ، معقل بيت الله الحرام ، ومثوى رسول الله عليه السّلام ، عاصمة الخلافة الإسلاميّة في بداية حياته ثمّ تحوّلت عنها بعد حين مع بني أميّة إلى دمشق الشّام .

لقد قلت إنّ همّه لم يكن الدّنيا وقصورها لذلك لم يفكّر في زيارة عاصمة الملك ، هذه العاصمة الجديدة التّي شدّت إليها من أصحاب الدّنيا الكثير .

إنّها حياة بين الحلّ والتّرحال ، من البصرة إلى الحرمين ، ذهابا وإيابا ، فلا يستقرّ له قرار هنا إلاّ لينتقل إلى هناك .

ماذا يفعل ؟ يتعلّم ويعلّم ، يستفيد ويفيد ، يعمل بما يعلم ، ويحرص على ذلك لأنّه مدرك أنّ تلك كانت سيرة من أمر الله تعالى أن يتّخذه النّاس أسوة ، وكيف لا يكون كذلك وهو الذّي عايش أولئك الذّين تنفّسوا ريح النّبـوّة ، وأخذوا العلم من المنبع الصّافي .

من ذلك أنّه كان خير النّاس لأهله ولأمتّه ، فعمل على الإحسان إلى من يسيء إليه ، وكان مسلما عند الدّرهم والدّينار ، لا يفتر عن الدّعاء إلى الله تعالى ، يحرص على حلّ مستجدّات الحضارة بما يصدر من فتاوى تيسّر للنّاس ما عسر دون أن تخرج عن مقاصد الشّريعة .

أرادته الدّنيا و لم يردها ، أقبل عليه القضاء مسرعا ففرّ منه فرارا ، ورغم اختياره مسلك الحكمة والكتمان في خضم السّياسة المتموّج آنذاك في بلاد العراق ، لقد مسّه منها شرار ،

فعرف غياهب السّجون ، والمنع من الرّحلة إلى الحجّ ، والنّفي إلى عُمان بعيدا عن البصرة الزّاهرة ، فلم يفتّ ذلك في عزمه ، بل واصل مسيرته على درب الإيمان بعزم وثبات .

خطّط مع الصّفوة من خلصائه للمستقبل فأفلح التّخطيط بعد حين ، وتخرّج على يديه أقطاب كانوا أساطين المدرسة الجابرية التّي عرفت بالمدرسة الإباضية ، هذه التي تأصّلت أصولها وتفرّعت فروعها انطلاقا من أقوال الإمام جابر وفتاواه ، ومواقفه ، نذكر منهم خاصة إمام الإباضيةِ الثّاني أبا عبيدة مسلم ابن أبي كريمة رحمه الله ، ذاك الذي تحقّقت على يديه آمال شيخه الإمام جابر بانطلاق الإمامة العادلة في اليمن وفي مكّة والمدينة ، لتستقرّ بعد ذلك قرنا وثلث في تاهرت عاصمة الدّولة الرّستميّة الإباضية في الجزائر (١٦٠ ــ ٢٩٦/٧٧٦ ــ ٩٠٨) من جهة ، وبتكامل أصول المذهب وفروعه من جهة أخرى تلك الأصول والفروع التي انطلق الإمام جابر بتدوينها في ديوانه الشّهير الذي كان وقر بعير ، ونقلها عنه أبناء هذه المدرسة ، وظلّوا يتناقلونها عبر الزّمن حيث يستقرّ بهم القرار ، في خرسان وما والاها من بلاد الهند والصّين وغيرها من بلاد آسيا ، وفي مصر وفي البلاد

اللّيبيّة بجبل نفوسة خاصة ، وبالبلاد التّونسية جنوبها وساحلها وأكبر جزرها جزيرة جربة ، وبلاد الجزائر التي عرفت أوّل دولة على يد أحد تلاميذ مدرسة الإمام جابر في البصرة الإمام عبد الرّحمان بن رستم الذي لم يتأسّ في جميع أحواله إلاّ بأيّام الخلافة الرّاشدة النّيّرة ، ومواطن عديدة من شرقي إفريقيا خاصّة منها جزيرة زنجبار ، ومواطن عديدة من إفريقيا الوسطى .

فالإمام جابر بن زيد إمام الإباضية بدون منازع ، وإن تنازعته بقيّة المدارس الإسلاميّة ووثّقته وروت عنه ، وأحبّته ، فذاك لا يزيد المدرسة التي تنتمي إليه إلاّ تأصلاً وقوّةً .

تلك بعض الملامح عن حياة هذا التّابعي الكريم الذي ذكرنا مدى تعانقه مع علماء عصره ، وفي مقدمتهم الحسن البصري .

وأكّرر قبل أن أختم ، ليت الأحفاد يكونون كالأجداد ، يتعانقون ، ويضعون اليد في اليد لتكون كلمة الله هي العلي .

والأمر لله من قبل ومن بعد ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم .

ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للّذين آمنوا ربّنا إنّك رؤوف رحيم .

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله ربّ العالمين .

تنبيـــــه

أيّها القارىء الكريم ، تدرك يقينا أنّنا لم نبن لبنات سيرة الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه من الخيال ، وإنّما استقينا ما أوردنا من أخبار من مصادر ومراجع متعدّدة ، ولم نحل عليها قصد التّخفيف والتّيسير ، وعلى من يريد أن يعود إلى هذه النّصوص قصد التّوسّع والتّوثيق أن ينظر فيما ذكره أشمل كتاب عن الإمام جابر بن زيد من مصادر ومراجع ألا وهو كتاب صديقنا .

يحيى محمد بكّوش :
فقه الإمام جابر بن زيد
دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ١٤٠٧/١٩٨٦

الفهـــرس

الإهـــداء ٣

المقـــدمة ٥

الفصل الأول : نشأة الإمام جابر بن زيد ١١

١) مولد الإمام جابر بن زيد ١٣

٢) نسب الإمام جابر بن زيد ١٤

٣) إسلام أهل عُمان المبكّر ١٦

٤) نشأة الإمام جابر بن زيد ١٨

٥) الإمام جابر بن زيد في مدينة البصرة ٢١

٦) الإمام جابر بن زيد في الحرمين الشّريفين . ٢٧

٧) شهادات في الإمام جابر بن زيد ٣٣

أ) الصّحابة رضوان الله عليهم ٣٦

١ ــ عبد الله بن عبّاس ٣٦

٢ ــ عائشة أمّ المؤمنين ٤٠

٣ ــ أنس بن مالك ٤٥

٤ ــ جابر بن عبد الله الأنصاري . ٤٦

٥ ــ عبد الله بن عمر ٤٧

ــ تأمّل في هذا اللّقاء ٤٧

ب) التّابعون رضي الله عنهم ٤٩

١ ــ الحسن البصري ٤٩

٢ ــ قتادة بن دعامة السّدوسي .. ٥٠

تـابـع الفهـــرس

٣ ــ إياس بن معاوية ٥١

٤ ــ أيّوب السّختياني ٥٣

الفصل الثاني : عبر من سيرة الإمام جابر بن زيد الذّاتيــة ٥٧

ــ خيركم خيركم لأهله ٥٧

ــ أحسن إلى من أساء إليك ٦٠

ــ القليل من متاع النّاس يورّث النّار ٦١

ــ سؤال الكفاف من الله تعالى ٦٤

ــ الغنى غنى القلب ٦٥

ــ الدّنيا لا تساوي نعلا بالية ٦٦

ــ الإمام جابر مسلم عند الدّرهم والدّينار ٦٦

ــ الصّدقة أفضل من حجّ النّفل ٦٨

ــ لا مماكسة فيما يتقرّب به إلى الله تعالى ٦٩

ــ الرّاحلة الصّالحة ٧٠

ــ الحجّ من أفضل أعمال البرّ ٧٧

ــ الدّعاء الصّالح ٨١

الفصل الثالث : عبر من سيرة جابر في خضمّ المجتمــع ٨٣

تـابـع الفهـــرس

١) الإمام جابر بن زيد في المجتمع . ٨٥
أ) الدّعـوة إلى الاعتبـار ٨٥
ب) ما أقربكم ممّن أرادكم ٨٨
ج) وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ٩٠
د) تخليص المنكوب ٩٢
هـ) احترام حقوق الجيران ٩٢
و) التّيسير على النّاس في حدود الشّريعة . ٩٧
٢) الإمـام جـابر بـن زيـد فـي خضـمّ
السّياســية ٩٩
أ) الإمام جابر يُسْتَفْتَى وهو في السّجن ١٠٠
ب) مواقف الإمام مع الحجّاج بن يوسف ١٠٠
ج) الإمام يرفض القضاء للحجّاج ١٠١
ـ جرأة الإمام على الحجّاج ١٠٥
٣) رأي الإمام جابر في القدر ١٠٨
٤) مذهب الإمام جابر بن زيد ١١١
الفصل الرّابع : من رسائل الإمام جابر بن زيد وآرائه
وفتــاواه ١١٥
١) الموعظة الحسنة من الرّسائل ١١٧

تـابـع الفهـــرس

أ) التّقـوى ١١٧
ب) تعظيم الله تعالى ١١٨
ج) لا قيمة للقول بدون عمل ١١٩
د) كيف يفصل الخصام ؟ ١١٩
٢) نماذج من آراء الإمام جابر بن زيد ١٢٠
أ) كتابة المصحف بالأجر ١٢٠
ب) قـراءة الإمـام لقـوله تعـالى (وإذا المـوءودة
سـئلت) ١٢١
ج) حكم من أكل أو شرب في رمضان ناسيا ١٢١
د) نكاح الزّاني والزّانية ١٢٢
هـ) في الطّـبّ والعلاج ١٢٤
وفـاة الإمام جابر بن زيد ١٢٥
عبر من مشهد الاحتضار ١٢٥
١ ــ من جهة الإمام جابر بن زيد ... ١٢٧
٢ ــ من جهـة الإمام الحسـن البصريّ ١٣٠
حسـن العلاقة بين هذين العالمين ١٣١
الخـــاتمـة ١٣٣
تنبيـــه ١٤٠
الفهـــرس ١٤١